بيسان أبو خالد



صليب انتظار

شعر







د. بيسان أبو خالد*

،أنا عربية فلسطينية، اسمي بيسان، وهو سم مدينة فلسطينية قديمة، لي ارض كقطعة جنة، لم نعش فيها، ولكن عاشت في قلوبنا.. وعاش فيها أجدادنا.. وأجداد أجدادنا.. زرعوها اشجارا، وورودا، وأكلوا ثمرة تعبهم، وعاشوا وتربوا هناك.. ولكن في يوم من الأيام رأت الأرض شبحاً أسود، انقض عليها ذلك الوحش لكن ناضل كثير من اجدادنا لابعاد ذلك الشبح المخيف عن أرضنا الطاهرة، لكنهم استشهدوا، وكان منهم جدي الذي استشهد مع الكثير من رفاقه عام ١٩٣٨،.

بهذه الكلمات قدمت الطبيبة الشاعرة بيسان ابو خالد نفسها الى أطفال العالم في رسالة بمناسبة يوم الطفل العالمي**.. وكانت في العاشرة من عمرها آنذاك..

---

* صورة بالرصاص للفنان حسام سلطاني

** مقتطف من الرسالة التي نشرت في صحيفة الثورة السورية، وصحف عربية أخرى، كما ترجمت الى عدد من لغات دول عدم الإنحياز إضافة الى الانكليزية والفرنسية والاسبانية، والروسية.. كان ذلك أواخر عام ١٩٧٩.

بيسان أبو خالد

صليب انتظار

شـــعر

الأهـــــداء*

لعابر الغرباء.. إذ يستبق الموت
عودتهم.. فلا يبقى لهم وطنٌ.. سوى
الأكفان..
حين تهاجر الأوطان.

* كتبت قصائد هذه المجموعة بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٩٧.

«. . . . .»*

إلى خليل خاوي

إلى الرجل الذي اختار موته في اليوم الذي لم أختر فيه ميلادي.

إليه في هجرتي الأولى إلى شهباء لا أحد يدرك كم كبرت فيها وكم ستكبر فيَّ..

ولأنك لن تكون سرڤانتس الأزمنة الرديئة لن تدرك أي فارس هواء كان يسكنني وأن خلف معركتي آلاف من الطواحين ذبلت بين رحاها السنين.

ولأن سرڤانتس مات قبل أن يجتث من جسدي هباء فرسان الهواء ظلت الطواحين تهزج باسم سيزيف لتتدحرج الصخرة المقدسة من قمم المتاهات إلى حضيض ألف هاويه...

---

* عذراً لأنني تركت جل قصائدي بلا عنوان لأنني أعتقد أنه بحث عن مفردات غير ضرورية إلا إذا ولد مع القصيدة سهواً كما توأمين...

تتخطى حرقة سيزيف خنوعه
يرقى شهقته المجنونه
ليفتت في ذروة عبثه
صخرة أحزانه وسجونه
أتوجس شيئاً لم يسبق لنبيذ الشهقة أن يُخمره في صدري
أي صحارٍ كانت تشرخني عن نفسي...

لقد صليت في تلك المدينةِ
ركعة للبحر ،والسفن الغريقةِ
ما انحنيت العمرَ
إلا الآن كي استل منك الجمرَ
يانهر الرمادّ...
وراءك يا أمام الصمتِ
شيء بات يكويني
وما حمّلت من طوفان أسئلتي
ربيع رحلتُ غير كتابك
المنحور في نعش السكارى
واستبحتُ مصيرك الغَجريَّ
ما استوقفت حين مضيت

غير الوقت في أشلاء بصارهْ..
وليس الرمل جثته بقادرةٍ
لكيما تستشف دروب كفينا
فخلٍّ العمر مثل العمرِ
قد يمضي..
وقد نمضي
ونترك سره الزبديَّ
لا أحد يفك المدُّ لغز الموجِ
حين يفضّ لوعتهُ
ويحمل من فتات الصخر أغنيةً
تَرسَّبُ في أقاصي العشقِ
من أنتِ..؟
سؤال ملؤه الظلماتُ
ياوجع الغريبة في لهاث السندبادِ
يزف رحلته ويخشى العاشرهْ...
وما خبأتُ مختمر هنا
وحل وأفيون الرحيلِ
وجوه من غادرت ملء الأفقِ

أسئلة ركيكةْ....

* * *

لا شاطئ لاحت منارته الأخيرة
في المدى
وتهشمت سفن الحقيقة في دمهْ...
والكل لوّح حين لوَّعه الرجوعُ
مراكبي ثكلى وأحزاني دليل...
وصهيله مرجانة الوجد القتيلِ
على ضفاف محاره المسبيً
خلف شبَاك لوعته
ولاح الفَجر أيقونهْ
فنورسها الذبيحُ
يلاحق الطيف المسمَّر في
نزيف الظل في مرآة أشجانهْ
سئم الطريق من العبورِ
إلى رصيف البحرِ
وزنبقه الذي ضلَّ الطريق إلى رحيق مسافرٍ
فتمردت في العشق نجمته الأخيرةُ

وانحنى شجراً يظلل محجرَ
الليل المحنط في دمهْ
وأراق لوعته الزمنْ...
العتم كهل والدروب رخيمةٌ
ومساؤه المجدول من تعب الطريقِ
وغصة الأسماء زهر العيدِ
محتفل بجرْسِ رعافه المنحوتِ
في المنفى تراه يعودُ
في وجه.. وفي مطرٍ
ترى أأعود طفلته التي افترشتْ
بليل الأمس ضحكتهُ
ونمضي غيمة في القفرِ
يهرمها العبور ووحشة الآفاق
آه من حوار ليس يهجره الظمأَ

* * *

لمي شتات الوردِ
أخمرنا الذبول وأهدرتْ
سجف الخريف طيورها
من ذا يُخبئ لليمامة غيرَ

أعشاش ومرثاة تهزُ
براعم الكلمات في صدأ الوجعْ. . .
ومن يبقى على مرآتهِ
انطفأت وجوه الحيِّ
في أحداق مجزرةٍ
وصار الشعر نسل الخمرِ
في مدن تلوك الطفلُ
في أشداق رحم الصمتِ
من يدري. . .
بأن الخبز مقصلةٌ
لطائر رعده المنسي في زمني
فيا مشروخة الموالِ
لا تنسي وصيتهمْ
أبيحوا لحم موتاكمْ
غداً يأتيكُمُ الطوفان
ولا نوح يلم صكوك غرقاكمْ. . .

* * *

يؤوب الجدول الغجريُّ
من رئتيك مسموماً

مجرّحَ الطرقاتِ
ويرشفه اليباس على مرافئه
الجسد المعار
وتلفظه حجارتك النديه إثرَ
أن تاهت بخمرته
فعاد إلى المدار المر محترقاً
بنعش أثيره المصلوب في رئتيهِ
فرَّ من العيون الجرد مشدوه الخطا
ومهشم الضحكاتِ
غار الغيث في أخدود أحزانهْ...
لهاثي من لهاثكمُ
وإني فاقد لغة
وجسراً بين حلمينا
ليُعتق حرقة الكلماتْ
وأرض أينعتْ
حجرين في كفينِ
في جسدٍ
وإحداها مصوبةٌ

[لتورق خلق فرخ النسر من
*نسل العبيدْ]**

* * *

... وعلى اليد الأخرى حجرْ
مرجومة إن فكرت يوماً
بفضٍّ بكارة الأحزانِ
أو ضوء القمرْ
حجرٌ حجرْ...

١٩٨٩



* هذه العبارة هي للشاعر خليل حاوي.

سوناتا الخريف

صديد وجاز

وشرنق أحزانه كي يطيرَ
وفضَّ عن الصمت أختامهُ
في صدى قد يلوك صداه
ويمتد ملء الفراغ الفراغْ
ترنّحت حيناً على بابهِ
وأمطرت فيه ارتجاف الزمانَ
تعانق فينا صديد الحروب وجرح المدينةِ
لم يجتذبني إلى الرقص كأس وغاص القمرْ...
تبدد صوتي ولون العناقِ
فعدت إلى شفتيه سديماً
وما مات فينا هزيع الكلامِ
سنابك ليل غداً لن تطأني

وبابك حي ووجهك أيقونة للعذابِ
ولا نحسن الرقص
شمسي وساقك مبتورةٌ
أتذكر آخر جاز لنا
دعوتك للرقص ذاك المساءْ
وحدثت بعضك عن قبلةٍ
ستمتد خلف احتراق الصداع
ولم تدعُ قلبي إلى الرقص يوماً
وغاب القمرْ...

كواليس ملهى

قدر لبهجة سيد النزلاء أن يتجمعوا
خصيان هذا القوم في الفندق
قدري بأني قد ولدت مرابياً للحزن
في نتن المقاهي أشتهي
بيتاً ونافذة كلوحه...
قدري بأن لا يعرف الباقون من أمي

ويجهلني أبي وكبرت في لهو المقاهي
ليلة نجلاً لغانية حزينة
تسدي لطفلتها الغناءَ
وتشتري خبزاً بنهديها
فتقتلها الخطيئة قبل أن تأوي إلى كنف جديدْ
وودت لو شاهدتها يوماً بوجه لا تغيِّبهُ
المساحيق الرخيصةُ
وودت لو أني عرفت الآن موطننا لماذا ؟
قد ولدت هنا وأينَ؟!
وبعد هذا العهر إن هرمت سنبقى
تحت سقف مشرع للريح هل سأكون دميتهمْ
لآوي المرأة الهرمةْ..:.
كما في البرد آوتني.
وفي ما خورها المجنون ربتني
كقطة مطعم شرهةْ
تلاطفهم لكي يرموا لها خبزاً
ويركلها كبير القوم يا أمي
فأكبو تحت نافذتكْ..

أخمن من تراه أبي؟
فهل هو ممن يديرون الكؤوسَ
ويشربون الدمّ...
أم أنه ممن يراق هنا دمه؟!
هل كنت في الأمس البعيد صبية
مثلي يداهمها البكاء
أم أنت وجه من نحاس ماجنٍ
هل جدتي مثل النساء الأخرياتْ ؟!
يا أمي الصماء لا أدري
شقاء مفعم بالح يدفعهم لأن تبقي أمامي في ابتسام مزمنٍ
وأنا أرى وجهي المحنط في مرايا الدمع منسكباً
على خد زهي شاحبٍ
تحت انسدال الشعر في فوضاهُ
ضميني لأدرك أنني حيّهْ
فكي خيولي من لجام خنوعك الأزليّ
كي تمضي
إلى وطنٍ
إلى أرض بلا اسمٍ

وإن تهنا كما نحن إلى موتٍ
سخيٌّ ظل شاهدةٍ
ولا تبكي فما أنت بأرملةٍ
أعود الآن من حلمي أرى نفسي
على شطآن منفضة .. زجاجات مكسرةٍ
صليل النخب إثر النخب أحذيةٌ
أرى نفسي مسورة بأكوام النفايات
ووحدي تحت مائدة
مسيّجة بقضبان من السيقان
فهل أغفو وأخشى إن غفوت اليوم
أن أعفو
وبعد السخط يا أمي أجالسهم
وفي بأسٍ أضاجعهمْ
فلا يبقى لنا بيت ولا حلم ولا موتُ
أطلي تحت مائدتكْ
خذي كفي ورأسي الآن في حضنكْ
وصلي الليل كي أكبرْ...

قبلة الموت

تواطأنا بأن نحيا
فكيف الآن ألقاكَ
وأهرب من مراياكَ
«أحبكِ» هجرة أخرى
تسافر للتي حرباً تواطأت وإياها
بأن نحيا..
وأن العمر لا يكفي لكي نبكي
وأن الأرض لن تحيا بموتينا
فآمنا بجمجمة نقشش في محاجرها سماءينا...
فكيف الآن ألقاك ؟!
أهشم وجهي المشروخ في أقصى مراياكَ
وكيف الآن تلقاني
تعانق طفلك المذبوح ثانيةً
بنصلة رحميَ القاني
أنحن الآن من كنا ؟!
وهل كنا كما نحنُ..؟
ونحن الآن من نحن...؟

وحتى اليوم لم أنفك من صلبان قامتك التي ارتصفت على جسدي

مخافة نيزك ولّى

وأدركنا برغم جليد جثتنا

بأن أكفّنا حيّةْ

فأغرقنا بقبلة موتنا عمرا ....

سخرية المطاف

أرى من قبور الذي تخاطفهم

إلى فكرة أو يقين مداي المعفَّرْ..

بهذا الفراغ المسمى سماءً

وهذا السحاب يصير سراباً

ولا يرجع المطر المستعارُ

حقول الملايين قمحا...

فهل كان سقراط يدري

بأن التأمل ما كان يكفي

لكي يبلغ العمر وعيةْ

ومن كان يدري

بأن الهموم الغفيرة للعطر تفضي
فيا خيبة العائدين من الحربِ
كي يشهدوا الآن أطفال زوجاتهم من غزاة المدينةْ
فلا تبقروا بطنها كي تعيشَ
فأنسالنا الآن باتت هجينةْ
ومن يجرؤ الآن أن يتحدثْ
ومن يملك اليوم بعضاً من الأبجديةْ
لكي يفهم الكل لغوهْ..
ومرت دهور الكتابة
تخاطبني بالرموزِ
وتطلق حين مجيء المخاض على طفلك الكهل رقماً
ولن يحمل العمر اسماً
لسوف يكون سبيٌّ الذي علموه على مقعد يابسٍ
لن يحب كما كنت تحتاج أمهْ
وسوف يعاني من الحبِّ
ثم يغافله قبلة قبلتين وينسى
وجوه اللواتي يضاجعن أحزانه عند ممشىً
ويختار أخرى

تبادله قبلة قبلتين وتختار غيرهْ
وهذا لكي يضمر العاشقون
ونحن نحنط وردة ذاك اللقاءِ
ثلاثون عاماً ونحن نحنط في الغيب قبلةْ...
ولكنهم علمونا بأن يصبح العمر بارقة من لهاثٍ
ومن ألق الواجهات مرايا
لذاك الزحام الذي فاته أحدب مدَّ كفهْ
ولا من أجاب نداء الحذاء الممزْ
وظل يهدهد قيثارة في المساءِ
توقف مترو...
تقيأ ذاك الزحام الذي داس أطراف حزنهْ
فمزق أوتاره ثم ماتَ.
لأدفن جثته في تراب ضميري
كمقبرة لكثير من الخزي لا تتركيني
وحيداً أحاصر هذا العذابَ
وأحتل إحدى الزوايا
لأرقب هذي الحشودَ
وأجهل من أين تنبعُ؟!

كيف تعود إلى حيث تبدأ ؟!
ستقتلني رغبة بالنهوض فأذكر أني كسيحٌ
على صدرِيَ الهش أو سمة الحرب حيث انهزمنا
وكانت فلول القبائل مخمورة بالغنائمِ
كانت خنادقهم خلفنا تحتنا بيننا ثم فينا
أصارحكم أنهم أننا نحنُ
هلا استفقتَ على جبهة من جسدْ
تصارع فيك بقايا من الروح كي لا ننادي
ونذكر أسماءنا مرتينْ
وتبقين أنت مصفَّدة القلب والساعدينْ..



« ••••••••• »

لكي لا تموت المسافات تحت صرير القطاراتِ
كان يدحرج قلبهْ
ويحمل صورتها تحت إبطهْ..
وكان الطريق الذي يتعرج حتى الضياعِ
تفسخ تحت رؤاهُ
وظل يدندن لحناً أحبته يوماً ولم يسترحْ...
فظل يعذبه وجهها المهترئُ
صورة أبيض أسودَ
أو بالعيون التي اخضوضرتْ
فارتضى يأسه في اقتنا ء ملامحها
مرة قبل أن يبلغ الآن منفى الصورْ
يباعد بينهما قدر مالحُ
كل السنين الكفيفة من حجره أو رحلْ

ليبحث عن رجل قد يليق بها
وما كان يدري بأن سيعود إلى قريتهْ
وبعد السنين التي أعقبتْ
تيقن أن فتاة على النبع كانت تزلزلهُ
لا تليق بمن قد درسْ...



« ••••••••• »

تناهى لمسمعه

بأن صليل الكؤوس وراءهْ

فحدق في من يجيء إلى الحانة الغامضةْ

يصب الكؤوس ويهرع ممتقع الخطوِ

نحو الموائد كيما يلاحق لهو الزبائنِ

يشرد في أي لحن يذكره أنه رجلٌ

ويزجره آمر يصفعهُ

أنه نادل قد رآها

تواري الملامح خلف المساحيقِ

ثم تدليّ على صدرها عقده المرمريُّ

الذي باع من أجله أمس أقراط أمهْ

وما عرفتهُ

فقد كان يشملها أي نذل ثريٍ

ويخطف بسمتها من ضلوعهْ

أدار لها ظهرهُ
وحطم تحت الكراسي الكسيحة أحلامهُ
وكل الكؤوس التي في يديهِ
فأخرجه صاحب النزلِ
للشارع الممطر البربريِّ...



« ••••••••• »

ولما تيقن قبل قليل بأني أحبهْ
ولكنني حين أجهشت شيء توانى
عن الحزن في بكر موتهْ
وشيعتُ أغلاله ثم قبلت طفلي
وأخبرته يايتيمي الصغيرِ
سأصبح هذا المساء أباً
ولم يكترثْ
قليلاً رآه ولم يفتقد بعد يوماً أباهُ
أفي قلبنا قبل أزمنة قد قُتِلْ...



« ◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆ »

وقبل المساء الذي يسبق الموتَ
كان احتضاراً رهيباً
تعمد أن يتمالك عمرهُ
تحشرج في قلبه كل نبضهْ
ومن ثم قد غادرته رويداً رويداً
بأنحاء جسمهْ
ولا شيء يذكرْ...
فحاول تجميع ذاك الوجود الذي يتضاءلُ
يهرب نحو جميع الجهاتِ
وينحل تحت الترابِ
أحس بذل العذابِ
ولم يرتجفْ
فقد كان شيئاً يفوق خنوع المماتِ
لأمنية باقتناء الغيابِ

فكيف انتهى...
لوجه يميد به بعد عام جدارْ
ويتركه البعض تحت الغبارْ...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

لماذا يظل المهرج ذاك المساء يقهقهُ
رغم تحدُّر تلك الدموع الوشيكة من مقلتيه لماذا ؟
تهفو البلاد العبوسةُ دواماً إلى بهلوانٍ
يؤرجح قامته فوق حبل الجنونِ
ليحظى بخبز العيونِ
ليخطئ ثانية كي تزدريه الحشودُ
ويسقط في الموتِ
لن يذكروه شهيداً لألهية داميةْ
وقد كان يعشق منذ الطفولة كل ألاعيب هذا القدرْ
سنابك من يعبرون إلى المدن النائياتِ
فلاحق كل خيام الغجرْ
ولم يستطع أن يرى رجلاً

لا يخبئ تحت ملامحه سحنة البهلوانِ
وخوف السقوط المريعِ
الذي لم يكن يُغتفرْ...



ســــيان

عزاء لسيدة خلف طاولةٍ
تحت سقف أكيد لمقهى
تجرّع خيبتها في انتظار الرجلْ
وتبرد قهوتها
تتلفت ثمة من سوف يدنو
ومن سيمر بها بعد حينٍ
ستلهو قليلاً بأحزانها
لتنسى بأن الغريب الذي
يجلس الآن مبتسماً قربها
ليس يشبه من تنتظرْ..



« ●●●●●●●●● »

سواء تبادَلنُا الآن بعض الصورْ
وكنا اعترفنا لهذا المساء العتيمِ
بضوء القمرْ
سيبقى لنا بعد هذا البكاء
وداع ونخب يذكرنا أننا لم نغادرْ
وظل لنا بعد هذا الفراق نشيجُ
له نكهة السنديان على سفح فأس كسيرٍ
ولن نتقابل ثانية
لأن الدروب التي تقتفي خطونا تتباعدْ
تلك التي لم نطأها ولن تتصالبْ
فلا نقترب بغتة لن نسير معاً
بيننا العنفوان ومجزرة الكبرياء ولكنْ
وخذ قبّة القلب متراسك الحرَّ فيَّ
وكل الحروب الوشيكةْ

وخذ بعد ظلي الذي ينحني
فوق صدرك في الليل عندَ
ارتجاف النوافذ تحت المطرْ
وخذ حبر صوتي الذي لن يكون القصيدة
مرثاة هذا الوداع ولا تبتعدْ
تحت هذي السماءِ
سأذكر أن صبياً
يبادلني قبلة في حماقة ذاك الجنونِ
وما ابتعد الخطو منا عن العشقِ
إلا غداة كبرنا....



« آه »

هنا لو يرجع الموتى
ونعلمهم بأن بيوتهمْ
تغتاب بعد حدادها دمهمْ
سيرجع جلهم للقبر ثانيةً
ولن يبكوا على ماخلفوه هناك من كذبٍ
ومن نسل وزوجاتٍ
ولن يخشوا ظلام البرزخ المجهولِ
إن حياتهم كانت مجاهل ملء عتماتٍ
فكيف يكون إن متُّ..
رأيت مشاهد الصلوات خلف شفاهِ من كانوا قبيل الموت أحبابي
رأيت وجوههم ملأى ببرد رتابة ونفاق...
شهدت القبر مزداناً
بباقة نرجس ذبلتْ

ومر العيد لم يأتوا رأيت قوافلي
تأتي إلى من مات من حولي
ومرت قطة عطشى
تدوس رطوبة القبرِ
وعاد الثلج غطاني
ومر صقيعه للأرض خلخلني
وأمي خلف أدمعها تدفئني
تغطي كل أخواتي وكان أبي يحدثهمْ
ويشعل كي يدفّئهم بقايا عظميَ الداكنْ...
لمن تأتي غريباً مثل شحّاذٍ على بابٍ
هنا أتسول الأيام مكترثاً
وما حمّلت من قبري
سوى الظلمات والوحشةْ...
حقيقة أنني أعدو
وأن الأرض لا تدنو
وأن مدارها القاسي سيحملهم إلى الأعياد ثانيَةً
لكي ينسوا وجوه الغيرِ
من نبكي سوى زمن من الأجسادِ

لا ندري بأن هوية تغدو شواهدهمْ
وأن الأرض لا تكفي لكي يبقوا
فسوف تَحلَّلُ الجثثُ
لندفن كل من ظلوا
وأن نعال أطفال تدوس رخام مقبرةٍ
وتعبث كفهم بالورد تحت ظلال شاهدةٍ
كما كنا على أعتاب حارتنا
نهرول خلف من يمشون خلف النعشِ
لا ندري بأن غداً جنازتنا...



مرثية لأي لا احد

لن يمنحك الطاغي يوماً اسماً
حتى الأسماء غداً
صارت سلعاً ترتاد الأسواقَ
وأنت فقير جداً
أفقر من أن تحمل رقماً
ستظل كما كنت كلا أحدٍ
هيهات بأن تملك شاهدةً
ليمر عليك صباح العيد صديقكَ
ينبح يحمل في شدقيه الآسَ
سيمسح عنك غبار الموتِ وحيداً يعدو
كنت تريه طريق المقبرةِ
وكيف يجيء ويذهب خوفاً من يومٍ ما
شيعك الناس وكان ضريحك يعلو أكتاف الأيام وحيداً
والقاتل لا يهتم لمرآهُ الموحشْ..

جروك خلف النعشِ
يجوح وينبح ظل يزوركَ عاماً أو عامين
يجوع فينبش قبرك
كي يفنى عظمك ...



عبث

لسوف يستردنا العدمْ...
ومن براثن الحياة ربما
أيقظت مباهج الوجود في
صميمنا المهاجر العتيم رغبة مبرّحهْ...
لأن نكون للدنا
ككائن مكبّل يروقة الخلود في معابر السنين
ثم يرتضي الرحيل عارياً
مكفناً بوهمه العريق عن جنازة ستبعثُ
وفي البعيد في البعيد
طفلة تشق رحم أمها
وتستهل موتها بصرخة حثيثةْ
وبعد أن نكون في جلودنا
التي تضيق حين ننمو
تواكب انبلاجها البليد نحو امرأه..

تختفي الوجوه في وجوهنا
تَبدّلُ العيون والأكف وابتسامة الطفولة العنيدة
وتهرم المرايا
أحلامنا التي ترهلتْ...
وحزننا الذي تهدلت دموعهُ
وموتنا الوشيكُ
وغيبنا الذي نعيش تفقد الحياةُ
سحرها البغيض إن عرفت ما سيحدثُ
فللإله وحده نبوءة المصيرْ
وأنت عمرك المقامر القصيرْ
ستصفح الذنوب عن وجودنا
وتشتهي القبور موتنا الأخيرْ....



خطيئة نـوح

وعند انصياع السنين إلى الزمن المنصرمْ
تمرد شيء من الوقت كيما يسمونه الذاكرهْ
ثم ينأى وينأى ليصبح أكثر من أي ماضٍ
سديم فنتركه مرتينْ...
وأذكر أني تحولتُ يوماً إلى ذاكرةْ
ولم أستطع أن أعيش الحضورَ
ولا أن أرى عالماً مقبلاً
وأصبحت عينين للخلف في جسد ملتوٍ
وساقين تلتئمان وبعض الخطا الشاردةْ
تعثرت ثم التفت فأدركت أني تجاوزت حتى المدى
وأفلت مني هراء الأفقْ
وما عدت أذكر أي طريق سلكتُ
لأي هنا قد وصلت ولم يعرفوني...
وكانت مدينتهم ألف عام من البعدِ

عن بلدتي الغابرة..
وكان لعملتهم حين تسقط فوق المنصاتِ عزف
وزقزقة القبراتِ
خرير البحيرات همهمة المتعبينَ
حفيف الشجرْ...
تلفت حولي وأدركت أن الوجوهَ
التي قد تركت هناك أتتْ
وقد كنت أحسب أنا تعانقنا
عند باب النزوح إلى مثل هذا الزمن.
وكانت تصدُّر بعض الحوانيت والواجهاتِ
ترتب كل الذي أنقذته من البلدة الغارقةْ..
وألفيتهم عند سوق الحريم يبيعون أمي
وفي ملجأ قد رموا بأخي
وقد حنطوا وجه جدي لكي يرسلوهُ
إلى المتحف البشري كتذكار ثورة..
ولم يعرفوني
وكان لهم بعد نفس الوجوهِ
ولكنها الآن طين يخدّده الموتُ

عينان لا تبصران
فماً منزلق...
وقد صافحتني الشوارع ثانية بالخطا
فانسللت إلى أي جحرٍ
كئيب لأغسل هذا الجسدْ...
وكان لخان المدينة شكل أليفٌ
تذكرت بيتي وحائطهُ
أشرقت سحنتي لوحة من بقايا أبي
وداهمني فرح خادع أنني قد بقيت هناكَ
وأن الرحيل الذي قد ألم بنا لم يكنْ...
وأيقظني أجر هذا المبيتِ
ولائحة الأكل ذلٌّ كريه
ورائحة البرتقالِ الذبيحة في فندقٍ...
- وفتحت حقيبة هذا السفرْ
تصفحت بعض القصائدِ -
تلك نفايات روحي التي استهلكتها السنون
تناولت مرآة عمري
وأفزعني وجه تلك التي قد بدت

مثلهم من تراب وماءٍ
أخاديد تلك الغضونِ
وشعر تهدل فوق الجبينِ
ويسطو على ليله كل هذا المشيب الذي فضَّضَ القلبَ
كالقمر المنتظرْ...

فحطمتها بغتة كي أمزق شكلي
وناورتُ
حتى تدحرجت تحت السرير الكسـ
فدستُ حطامي بنعل تهتكَ
من طول هذا المسير الضريرِ
سحقت الزمنْ...
وكان عليَّ بأن أتواطأ ثانيةً
والوجوه لئلا أرى
قرفي من دمي في ازدرائي
لهم فأعلنت أني توطنت في أرضهمْ
بعد أن أتلفتني المياه الغفيره...
طوفاننا قد أطاح بأوطاننا
حين كنا نلملم أشياءَنا

لكي نعتلي طوف نوح هنا سوف يتركُ
ما فوق أجسادنا طميه الآدميَّ.
وطحلبنا نابت في شقوق الأكف
وتحت العيون وعند كهوف من الإبط
والذاكرة ...



نبــــوءة

وأعود بالأحزان من حجري إلى كفٍ محطمْ
خطوي يبارح نرجس الأحجارِ
تطرقني العذابات انحداراً في ازدراء مزمنٍ
ويطوف في جسدي البنفسج..
في الأرض ما يكفي من الأحزان لا تبكي تبخرت الدموع
أوطاننا خبز وسقف أو لهاث عابقٍ
أحلامنا فرح رخيصٌ
بسمه حبلى عبوسٌ في أواخرهِ البكاءْ.
عدني بغيم لا يبدده الشتاءْ
أشلاؤنا زمن وذاكرة يوزعها الزحامُ
نسيان أمتعة على طرف الطريقْ..
وصبية تلقي بخصلة شعرها
آساً على وجه يغيبْ...

وضريح قاطرة ومعبدْ...
والناس يشغلهم دوار مستعارْ
والأرض تقذف بالرجال إلى جحيم مظلمٍ
من مات مختصر بكلمةْ
من عاش مقتبس من الكتب العتيقةِ
يشبه الأجداد واحدهم
ولكن الخليقة لا تدين له بجلدةْ
هل استطيع الآن أن أختار جلدي
هل يستطيع الجلد أن يؤوي عظامي
حين يدركها التشعب تنتهي ما بعد أطرافي..
شجر يحنطه الشتاءْ
للقحط في أرض سخيةْ...
من ذا يجازف بالسنين ليشتري من عمره زمناً سحيقاً
لغرابة الآتين من قصص العبيدْ
أشتاق أن أختار صلباني
وأخشى الموت في مدن الرقيقْ..
من يخبر الآتين بعد الموت

أن جموعنا انتظرت ...
من يخبر الأحلام عن آلاف موتاها
من يخبر الأوطان عن قربانها البشري من؟
وسيذكر السجان من هربوا ومن ماتوا
ومن ظلوا على أطراف هذا العالم المنفيّ
كي يحيوا..
ليخبرهم عن الجوع الرماديً
عن القمر الهلاميًّ
سنحمل وجهنا البري
في أقصى متاحفهمْ..
ولن يحصوا قصائدهمْ
وتضحي فوق هذي الأرض لوحات الملايينِ
كسجاد لمن عبروا ممرات من البؤس الخرافيً
وغويا* بعد كل القهر مجنون
وحمقى من يهزهمُ نسيم الصيف والأطلال
مرضى من يعانونَ

* رسّام إسباني.

سيبهرهم وميض البرقِ
حتى بعد هذا الليلِ
لن يتذكر الباقون ضوء الشمس إن أشرقْ...
ولن يتدافع العميان أزمنة على شرفهْ...
إن الهنا المفجوعَ
بعد قوافل الالحاد ماتْ...



« ••••••••• »

تتضور تلك الشرفة من نزل باردْ
أشرعة نوافذها الموصدةِ
على وجع الحانات الملأى باللاشيء ولكنْ..
رقصتها الأولى وعناق يتسخ بأعينهمْ
أشياء تتقهقر تحت الضوء وتندس بعيداً
في ثنيات القلب لتلتقط الحلم الهاربْ..
أشتاق إليكَ
ولا أعرف من أنت فهل أدري؟
ينسى الحب العاشق؟!
أشتاق إلى فوضى الزمن المتصحر في كثبان العمرِ
المتروكة عند العاصفة الأولى
كالبحر تغادرني الأمواج الصخرُ
لتكسّر عند متاريس الصخر الجارف

أتهور يا أغلى لحظات جنوني التائه
ثمة أسماء لا تعرف أصحاباً كي يبنوا أحلاماً فوق الشطآن الآثمةِ
وثمة أوراق تتطاير عند مهب دموعي
شتان وشتان الآنَ
مابين القمر المتعب من شمس قادمةٍ
مابين الشمس العازمة على محوِ
الضوء الفضي المرتجف الواهنْ..
في الذاكرة المخصية بعد وجوهٌ
في الأعين ساحات القلب المهدورة في رجل آسنْ...
أتوجس أن أصحو
أتردد عند النهر لأنكر شكلي
أن أتسلل من فضته وأعود أصالح وجهي
أبحث عن خصلات الشلال المسدولِ
تاركة كتفي العاري
الليل قليل والفانوس الراجف عند الناصية
يتراخى ما عاد الزيت يكفينا

ليضيء العتم وأرصفة الطرق الملويةَ
لا يكفي كي نبصر آخر شارعنا
بعض الخطوات المنسيةِ
لا يكفينا كي نرجع خلفاً للبيت
ولا كي نوغل في أطراف الأرضْ...



مر القطار الأمس لكني بقيت على الرصيفْ
أجفلت ثانية وأحصيت المتاع
لأدعي أني نسيت جواربي
في كهف درجي
وانتظرت مرور ركابٍ
يتدافعون إلى الصفيْر..
وتباطأ النبض الكسيرْ..
ويطأطئ الهرب المجنّح بالأماني
كاد ينخلع المكان عن الثواني
الآن ينشرخ الرصيف عن القطارِ
إلى اتجاه غيرهُ..
وتظل بين أصابعي الخمسينَ
بعض بطاقة لمدينة الفردوسِ
تُذكرني بأني قد بقيتْ...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦ »

«سأعلن أني ولدت قتيلاً في بلدة ميتة..
قد أرضعتنا أن الحياة الرخيصة أثمن منا
فبعنا الحقيقة كيما نعيش ومتنا...»

وأسأل ما أريد الآن في العتمةْ...
شموعاً أو لفافة غربة أخرى
أعانق هيكل السيابِ
يخصبني بشعر من رفاتِ
العيش يبعثني...
فكيف تموت ثانية على جسدي
وتتركني...
تراب القبر يغشاني
وهذي المومس العمياء تسكنني

فكيف الآن تتركني
أعيش كسيحة العينينِ
صوب جنونك الناحلْ
أصارع صدرك الضامرْ
بكفي أنشل الأضلاعَ
من ملكوتك المنسل في قفري
أحس ولم تكن بأبي
بأن مخاضي المحتل في قبركْ
تباركني بمن لاقيت من موتى
وتحملني لجوف الأرضِ
تُقرئني أناجيل قافيتكْ
تعمدني بحيرة دمعك المالحْ
فأدفن وجهي المرتاعَ في صدركْ
لأخفي عنكَ مابغداد من قتلى خذلناهمْ...
تعانقني تحس برعشتي تنمو
بجدول حزني المنثالِ
في أخدودك الدافئْ
وتسألني...

ترى إقبال تذكرني
ترى غيلان إذ أنجبته
أموت يكرهني؟
أجيب بصمتي الباردْ
ألا تدري وأنت المنصتُ
المدفون تحت قشور عالمنا
تحس دبيبنا المجنونِ
هذا الليل كل العمر يسحقنا
تكسّرُ قشرة أخرى
تنزُّ ضيا ءه الخافتْ
أرى عينيك تدفعني
تراني هيكل امرأةٍ
وتكره لثم جمجمةٍ
مرايا رفضك المذعور تجرحني
فأنت الآن قد تعلمْ
كيف تفسخ الأجساد في القبرِ
ولا تدري...

وكيف تآكل الأحياء في دوامة القهرِ
ولن تدري...
أفرّ من قضبان الضوءِ
في الفجر المحايد...
شرك عناكبه التي تصطاد
عتمتنا فتفجعني مغادرة القواقعْ..
أودع جثتي عنوةْ..
تواعد ليلة أخرى ولن أرجعْ...
وعدت إليك لاهثةً
أغثني الآن يابدرُ*
أرى الأشباح تنبشُ مدفن الشهداء تعوي الآنَ
ملءَ تهشمِ الصلواتِ
بابل جد مقفرة ولا عشتارُ
تعطي الخصب ثانية
إلى أرض بدون رجالْ..
– تحشرج المدن

* السياب.

وتستهل موتها برقصة الخطيئة الممجَّدة
تكفن الحداد بالغناء أو تسيرْ
جنازة جنازة لكرنفال بغيها
آه كم أود أن أكونَ
ولا أكون حيةً وميتةً
آه لو تضمني وتنسني
لبرهة أنوثتي المحنطةْ
لعلني وجدت في التراب ما فقدتْ
سيهطل المطر
ويشرب التراب من دم البشر -
- عصارة هذي العذاباتِ
نسغ لجمجمة أزهقتها الحرابُ
ووجه تموت ملامحه
فيحفر فيه الشقاءُ ابتسامته الشاحبه
وهذا التراب الذي يحمل الدهرَ
وشم النعال إلى معركةْ...
إلى غزو غاباتنا

إلى قنص نوع يروق لنا
من طيور ونسل حزينٍ
بلا أمنيات كحمر الهنودِ
متى سوف نتركُ
عصر الفتوحات هذا
متى تفتح الأرض شطآنها ؟!
ومن سوف يوقظ قابيلَ
من نشوة القتلِ
هل سوف يبصر حواءَ
تجهش فوق ضريح ابنها ..؟!
أود الرجوع إلى غابة آمنةْ
أود افتراش الكهوفِ
لعلي تطهرت من رجسنا ...
وهل كان يدري
إلى أين تقتاده الكارثة
ومكلفة أنت أهرامنا
ومكلفة ناطحات السحابِ المطارد والمكتباتُ

وكل المسلات باهظة والثمنْ
وتحصده الجائحاتْ
لماذا افترسنا تضاريس كوكبنا البربريِّ الذي باع نبضهْ
وعينيه ظل أسير المدار الضريرِ
ونحن نفتش عن دربنا
عن جواب لألف سؤال بغيضْ
وألف دواء وماء لطفل مريضْ
وحين أرى موكب النازحينَ
إلى أينَ ؟!
هل ظل في الحزن متسعٌ
بعد للهجرة التاليةْ...
وحين تدوس القطاراتُ كل العذابات والذاكرةْ
يلوِّح فيها الغريبُ لطفلته وامرأهْ..
أحس هباء عذاب الصليبِ وقافلة الأنبياءِ
فطوبى لكل العباقرة الطيبينَ
تماثيلهم صحوة للضميرِ
الذي لا يعيشُ

وطوبى لأحلامهم تلكَ
كم أورثتني البكاءْ
سنبقى نمجِّد فيهم مرايا الخطايا ونبقى
كجرذان أرض تطوف دهاليز جدوى...
يا بدرُ* تراني تداعيت ...
حتى احتواني العدمْ
تراني هذيت ومن يسمع الآنَ
تمتمة الميتين على جثث المقبرةْ
فلا الحارس الآن في كوخهِ
الزائرونَ هنا العيدُ
منتصف الحقبة التاليةْ...
سيأتون فجر الصلاة التي ألحدتْ...
ويلقون بعضاً من الآس أسوةْ
يعودون كي يرتدوا الأقنعةْ
وكي يصنعوا كعكة للضيوفِ
وكي يذبحوا نعجةْ

---

* السياب.

حيث يبقى الفقيد وحتى الشهيدُ
على حائط القلب أكذوبةٌ
صورة في زوايا البيوتِ التي سوف تنسى...
لعشرين عاماً يعيش هنا
وعشرون يوماً ستكفي
ليجهل جلٌّ الذين بكوه
هنا كان أو قد يكونُ
وعشرون أخرى
تضيع مناقبه ثم تبدأ
أخطاءوه الفادحةْ..
ويعلو بهمس العراك الرخيصِ
اقتناءاً لثروته الفاجعةْ..
أبي انني لن أموتَ
وما عشت يوماً ... وأخشى الخلود ولكنني
أيا أم أحببتك الآنَ
لا زلت أسألْ أية فرحةْ
تلمُّ بكم حين يبدأ ثغر الوليد

عذاب الحياة بصرخةْ...
ستصفح عن ذروة الحزنِ هوة هذي الدموعِ
وينسل ضوء سخيٌّ إلى كهف صمتي
لكي تتهتك فيه العناكبُ والذكرياتُ
فلمي توابيت من سبقونا
إلى الموت لمّي
وألواح طيني المعتقَ
كنعان فينا وهذي يهوذا
ستحفر في الأرض أوكارها
وتضرب بالصولجان على الأرض
خارطة الإثم تقتات من جبننا
والمدى طيع والجبالُ
من النيل حتى الفراتِ
الذي ينضب الآن من قحطنا
تراها الرحى إذ تدورُ
تراه عذاب الفصولِ
تراه انتحار المساحاتِ

منحورة بالزمنْ...
فهل يتبقى لنا من قلاع سوى حجرٍ
هل نعود إلى درع آدم في
وجه أولى الوحوشِ
وقد سبقتنا القوافل حتى
القمرْ...
أطفئي الضوء يا فاطمة
فإني سئمت التغني بأمجادنا الفانيةْ..
فما أورثونا لهذا الخنوع الممرغِ
أجدادنا من شموخٍ
قصور تُشاد على صرح بعضِ الشعوبْ
سنزهو بغرناطة الآن تلعننا
فاتحيها ويمقتنا عبر تلك القرونِ المجيدةِ كل بنيها...
لعل الخريف مليك الفصولْ
وللصين سور وما يزالُ
ويمتد فوق كواهل كل العصورِ
وسادة حاضرنا الخالدينَ يظلون يسرون للقدسِ

باعوا مآذنها الأمس سرا
وأسوار عكا
لتصبح في الغد حائط مبكى
يسيرون يسرون
كانوا فرادى
ومن ثم مثنى فمثنى
ومن ثم صاروا جميعاً
ويسرون للقدس صبحا ... وهم يصلبون المسيح..
مسيحٌ ومدريد كانت تلم العشاء الذبيحْ
لم أكن ميّتاً
حين صار صليبك أوسمةً
وعذراؤنا أمنا
لم أكن ميّتاً حين حاولتِ
ذات اغتصاب بأن توقظيني
ولكنْ تظاهرت بالموتِ
كي لا تكاشفني بالكساحِ
فأخذلها مرتينْ..

وصدقت أضرحتي في تراتيل أحزانها الغابرة
لكي لا ترى سحنتي الكافرةْ
وصدقت كل طقوس الجنازةِ
في ليلة ماطرةٌ..
ولا شيء ينفض عار ترابي ..
وآس عذابي
وطفلاً هجيناً يهدد أحشاءكِ
سيجبرني الآن نذلْ
يُسمَّى أبي
أن أناديه يوماً أخي...



« ••••••••• »

لدهشة طفل ندىّ المخالبْ

لأقنان عشق فريد ومقهى

لهذا النزوع إلى أي شكلٍ

للون الشقوق الأخيرة في عقم أرضي

لوقع السنابك فوق الدروبِ

لحاناتنا المشرعةْ..

طلاء الأظافر عطر النساء وحلم الفتى في الرجوع إلى أمه

أو لأخرى تمد له الآن أثداءها...

ليترك شيئاً من الخبز تحت الوسادةْ

وتذبل فيه رجولته مرتينْ...

وخلف انحناء العذابات تحت اللحافِ الكثير من الدفء والاغتراب

وأنحاء كل البلاد الأسيرةْ...

على شفة الموت قبلةْ...

ونافذة من وداعْ

زبون جديد وعاهرة لن تضل عن الحبِّ في آخر القلبِ

ينهرها العابرون لتنسى...

بأن النساء اللواتي اختمرن وراء البيوتِ

بغايا لأزواجهنَّ

فللعهر ذات الطقوس ككل الجنائزْ...

هنا تستهل البغايا بأي خضوعٍ

وتبقى أسيرة كل الرجالِ

ولن يقتنيها أحدْ...

وفي قاع هذي المدينةِ

لا يشغل الناس غير القروش وعري النساءِ

ولا يشغل الأمهاتُ

سوى اللأي خلف الأواني

ولا يشغل الطفل غير الحواري

ولا يشغلنّي سواك عن الموتِ

أيٌّ سيشغله كل هذا الضجيج البطيء المدوي

وأوراق هذا الخريف الربيعيِّ

حينَ تكَسُّرُ تحت النعالِ

وموت الطيور قبيل السماءِ

وحب تداعى لأيِّ سببْ...

وللحزن نجل وفيٌّ على الأرض يدعى البكاءُ

يوزع تحت الجفون كوارثه المالحةْ..

ونحن الذين تداهمنا شهقةٌ

ثم ننسل منها رويداً رويداً

نخون الدموع لتضحكنا نكتة ماجنةْ...

سوف أدعوك للرقص ياسيد الموتِ في البارحةِ...

لسوف أراقص قامة هذا العدمْ

وسوف ندور ونلهو

ونترك فوق الموائد أحزاننا عظمة للكلابِ

ونترك بين الأصابع أنخاب هذا الفرحْ..

وطعم النبيذ على ثغر بيت قديمٍ

وأسفل تلك الشفاه يسيل

يلطخ أعناقنا كي يبلل بعض المشانق يشمل آجالنا

فانتظرْ...

يوماً سيحملني للوراء الذي

قد يسمى غداً...



كـذبـة الحـضـارة

من وطأة الأهرام آتية من أرض خوفو
من سخرة كالذل يانعةٍ
ومن فخر يطاطئ من عذابات البشرْ
من سائح يجلو بحار الأرضِ
كي يصطاد في رمل الفجيعة مشهداً
هرمية الأحزان رمتُهُ
ومعجزة شجيّةٌ..
وتظل تدمع في مسلات الصبابةِ
عزة من كبرياء الورد ماذا تتركونَ
سوى الشجر؟
ظلاً لزيف قصيدةٍ
نُظِمت لتسأل عن مطرْ...
وعداك فرعون العصورْ...

ما كان في بيتي دواءْ..
ما كان طفلي يعشق الرائي
ولا كتبي سديم الكهرباءْ..
من آفة الصلبان آتيةٌ
ومن طاعون روما
من كذبة المدن التي تصبو إلى أرق الفضيلةِ
أرَّخت وجعي على صكٍّ اغترابي
من ذلك الممتد من بحر الخلاص البكرِ
من أصفاد روما...
لجناحنا المصلوب ذات حضارةٍ
يا فاجع يا أيها الزمن الذي رضخت دقائقهُ
لينسج من رفات الوقتِ أغنية
يعمدها الخنوع الرطب في الصورة



رحـــــل

.. وقبيل أن ألقاه أوَّل بغتة ودعتهُ
وسألت أهل الحي هل بقيت لنا طرق هنا...
تمتد من جسدي إلى شبهي الأسكندروني العذاب
وبيننا لغة كسيرهْ...
تتآكل الكلمات في شفتيه من جيل لجيلْ
وغداً يعود إليَّ مذبوحاً بطفلته التي نسيت مع الأيام
صورة جدِّهِ.
أترى يعودْ ؟!.



مـوت ليلـة المـيلاد

تترعرع الأحزان في نتن المقابرْ
يتزاحم الأموات شاهدة فأخرى..
وهنا انكسارات المنافي قصةٌ
لا تستطيع السرد أو ترضى الكتابةُ...
أفراحنا بهو المباهج والكمان العذب أو أعيادهمْ
أيامهم عيد بعيد في الفنادقِ
والذين على الحداد المر لا عيد لهمْ
غير الأراجيح المهشمة الضلوعِ وفي الحدائقْ..
أطفالهم لهثوا ليلتقطوا الحجارةَ من دمار في منازلهمْ
يعدون فوق دروبهم والثلج بلل نعله المثقوبَ
لا شيخ يصادفه ليمنحه وساماً
أو أباً ورغيف خبز يابسٍ
أو معطفاً ليرد عنه رصاصة الموت الأخيرةَ
فازهري ياغربة الفقراءِ

في شجر من السرو القتيل
على المرافئ غصّةٌ كانت بأضوائي التي انتحرتْ
أغصانه كانت مزينة تلألئُها الحرائقُ
حولها والعالم النشوان محتفلٌ
وينهرهم بآلاف البنادقِ
نحن نرثيهم بكلمةْ..
ثم ننساهم سنيناً في مباهجنا الرخيصةِ
لا نكابد برد من عاش الخيامَ
فنحن أدمنا المدافئَ
واغتنمنا الحزن كي نرث النغمْ..
يامن يعيش الآن في جسدي أغثني
ما عدت قادرة بأن أتجنب الغثيان لكني بعيدةْ
وأحس أني الآن خائنة لقلبي
والدرب يجرفني إلى عمق المتاهةْ
إذ لست أدري
هي سطوة الهرب الشجي وخلفنا وهمٌ يلاحقنا ؟
فمن منا سيسبقنا وهل
سيان نحن الآن في بهو الفنادقِ

والكمان الهش يشملنا وعازفه الممزقُ
بين سحنته وربطته الغريبةِ
بين بزته الأنيقة والتي ليست تليق بحزنه ونحولهُ
الآتي إلينا من بلاد الساحة الحمراءِ
شرّدهُ ضجيج اللأي في مدن محاها الثلجُ
أو حاناتها نبذته وامتلأتْ
دخاناً أو عراةً
يرقصون على ضجيج الروك والديسكو
نساءً من وجوه مستعارةْ
أجسادهم وطن لنزوة سائحٍ
فلمن أنا التي ذبلت وتعزف ههنا
لحثالة صماء كانت تحتسي دمك الجريحَ
نبيذ أعياد ونخبهم لأعوام أكيدةْ..
سأكون في هذا المساء وفية لقصيدتي
وأخون نفسي
لو تنتظر
يا أيها العبث الأخير على منصات المقاهي
غجرية خلعت طقوس قبيلة غرقتْ

سأنكث بالوصول لكي أقاتلَ كذبة الجدوى...
أيها الحمقاء هل سأجيء في سفر الخطيئةِ
من عذابات التلاشي
وسفينة أخري ستزعم أنها مخرتْ
عباب القلب ترفعني
شراعاً في مهب الموتِ
صارية من الجسد النحيلِ
إلى بلاد من يقين موحشٍ
كل الموانئ في الطريق إلى
الفراغ الخصب متعبة الوجوهِ
وعالم من أقذر الأسواق يرحلني
ولكنْ.
توقي المعمر للرحيل بلا خرائط أو بكاءْ
حيث لا زمن ولا حتى مكان أو شتاءْ
فانتظرني عند أبواب الجنونِ
قصيدة أخرى وإني لن أعودْ...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

حين دخل زنديق الموت بوابة الحرم الإبراهيمي أخرج ... من ملكوته للأبد ...

بغير كثير من الزهو أطلقت صوتيَ الوئيدِ
عزيفاً يؤم براريك صمتي
وأيقنت أن ارتداد الصدى فادحٌ
ثم يخبو ويخبو إلى أن تموتَ
الشفاه على رنة باردةْ
تحدثت عند المغيب إلى الشمسِ
كانت تشارف أن تقتنني
لونها حمرة من دماء أريقتْ
مع الفجر ثم احتستها السماء
تخبئ آثامها في المغيب ويصبح هذا المساء

شريكاً لها والنجوم التي تتواطأ ثانية بالبريق وهذا القمرْ....

تسللت نحو ارتخاء الشجرْ
وحاولت أن أتذكر هذا الصباح المريرِ
فلا شيء ينبئ عن موتنا
غير بعض النحيبِ
الذي ظل في باطن الأرضِ
رجعاً كئيباً لأي صدىً...
فاغفري صيحةً لا تجيدُ
امتطاء زلازلها
كي تقوِّض هذا الهدوء الرخيصَ
ولا أن تشي بالحرابِ
التي قد أطاحت بهم تحت مأذنة واحدة
وعدت إليَّ وجدت بأني
تخليت سهواً عن الحزنِ
حتى أراقت وجوه ملطخة خلوتي
فأهدرت هذي الحياة البذيئةَ

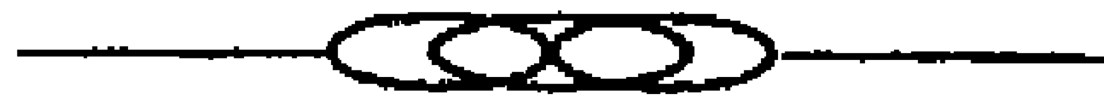
ثم انكفأتُ أزاوج بين اندلاع البراكينِ
في حيهم بغتة ثم بين زقاقاتنا الماجنةْ
فقد شرختني كما كل مجزرة سوف تفعل ثم
افترشت الممر الوحيدَ
الذي كان بين الخنوع وبين الغضبْ
تراجعت أكثرْ..
تقهقر فيَّ الحنين إلى معجزةْ
وأيقنت عادية الموت في
عالم يدلهم سواءْ
وأنا كأكثر مما نريدُ
التهمنا تفاصيلنا واكتفينا
بوقع السنابك في أي ذاكرة لم تكنْ...
وتحت انسياب الحياةِ
إلى الشارع الملتوي
زهرة من غد نرجسيٍّ
وأطلال وجه تعرى مع الفجرِ
من جلده المنسلخْ..

سأمضي وأذعن يوماً لنبضٍ
وأجرف نحو الطريق المؤدي
إلى غيهب الموتِ
تجترني رغبة بالسقوطِ
إلى وهدة من تراث الأسى
وانتزاع النعال
من نجيع الخطا ومن خيبة في الوصول الضليل فعدني بأن
لا تعود...
لعلي تواطأت والبحر يوماً نسيت الغرق
ورائحة السفن المبحرات إلى أرخبيلِ الزمنْ
قراصنة الموتِ
تلويحة الأم عند الرصيف المحاذي لرمل الألمْ...
ونحن استعدنا أصابعنا
نقتني قلماً شاحباً ثم ندنو
من المبضع الحجري ونفضي إلى ملعقة..
تسترد ملامحنا مسحة من دم فاترٍ
وانتصاب النهود على أي صدر حزينْ.

وقد كان دوماً لنا خلف هذا الجمال المراوغِ
يوماً أباً ثم أماً توارتْ
ويزهد أبناؤها بالورقْ..
لكي احتمي بالبكاء قليلاً لعلي
توطدت في دمعة خلفَ
هذا الستار الشفيف من الملح والماءِ
دافئةٍ كالغرقْ..
وبين الخرائط شيء أخٌ
بين تلك التي تنتهي أو تلدْ
فلا ضير أن تتناسل فيها الخطوطُ
إلى حيث تأبى طويلاً بأن تنغلقْ...
ولن نقتفي موتنا كي نعيش مداراً أخيراً
فلا شيء يستوقف الأرضَ
أو يدحض الموتَ
فابق بعيداً أيا الخوف من أي خوف علينا
كما قيل أن ننحني للعواصفِ
أن نقطع الوقت حتى يمزقنا

إرباً ثم يلفظنا خلف هذا الزمنْ..
وياليتنا ما وطئنا في الحلم فردوسنا
ثم صرنا نفتش عنها وفي أرضنا
ثورةً ثورةً
فاقتربنا إلى حيث كانت جهنمنا في الأبدْ...
هو العجز يشفع ثانية للهروبِ
البليد إلى الذاتِ
كي نحتمي من عذاب الضميرِ
وبلبلة العائدين إلى خزيهم في ثياب الحدادِ
سنعدو لنهرب من أمسنا البربريِّ
إلى حاضر زائل أو غد سرمديٍّ
فنحن الذين حملنا خطايا الحروبِ
وآثام كل الهزائمِ
ثم انتصبنا أمام المقابرِ
تمثال حرية أو شهيدٍ
سيجهله الآفلون من الموتِ

لن يخبروا أهله أين كانَ
لمن قد قضى نحبهُ عبر تلك القرون الخؤونةِ
صارت جماجمه الآنَ
منفضةً للسجائرْ...



وحين تجاوزت نفسي
بُعيد عبوري الضنينِ
على أي صرح خربْ..
واكتويت ببعض الخطا
ثم أيقنت أني أحاول أن أبتعدْ...
تلفت خلفي ولحت كجزء أكيدٍ
من الأُفُق المنتهي عند أسفل نعليَّ
ما قد تبقى لنا الآنَ هذا العبور البليد على قشرة هشة من تمنّي المضيِّ بعيداً وأبعدَ
من أن أرى قامتي في جدار موازٍ
كظل يذكرني أنني قد تشوهتُ
هذا المساء سيمحوهُ
بعد حين لأبقى وحيدهْ...

كشيء تبعثر في القلب ثم انطفأ...
لنا بين ضحكين وجه تغضَّنَ في شهوة آسنةْ
وبعد انتحار الجيوبِ
انتظرنا مرور الثريّ المهاتر من حينا
كي يجود بوهب الحياة على كل تلك الجموع الغفيرة من أهلنا

ودوماً تصدَّرنا رجل بائس القلبِ
هش الجناحين أعرجْ...
كأني تنحيت لم أتسولْ..
ولكنني سوف أحيا
لكي أشتري الآن خبزاً
ومن أي فرن تسولْ..
وعند اندحار الشوارعِ
مذعورةً تتشعب نحو السديمِ
تفرق روادها الآمنينَ
تذكرت أني نسيت على النارِ
إبريق شاي ودفترْ

وأني محاصرة بالمضيِّ
وخلف لساني مذاق الحياة ازدراءً
تمزقة لقمة سائغةْ
ذات انزلاق عسير إلى أي جوف دبقْ...
وخلف انحسار الكتابة ثقب عيوني
يؤبؤ يشكل الضياء وينهبُ
حتى الشعاع القصيَّ
لأشياء لا يرغبون لنا أن نراها
فتعبر خلف العيون إلى وعينا
ويمسحها النوم في الذاكرةْ
فنصحو أخف من النحل أو من ذبابةْ...
وبعد اقتناء المسار المذببِ
في كل صبح ترانا
نصير امتلاكاً مشاعاً
لأي طريق تعود أن يستحث الجموع لكي تنحني للغبار
وبعض السياطِ
ونحتال يوماً على الموت بالحب والأغنياتِ

ندندن أطلال صرح بعيدٍ
يئن الحطام وتهتز تحت النعالِ
قشور الجليد الشفيفهْ...
هنا تستغيث الأكف بأكتاف بعضٍ
ونصمت كي لا نقوِّض هذا الهرمْ
سنخشى تآكل إحدى الصخورِ
تداعي الألمْ...
لكل فراعنه الباطنيّه المولعهْ
فويل لمن يتمرد
يوماً على كفه أو أطاع صعاليك قلبهْ
فأفضى إلى شارع موصدٍ
لا يفيد الرجوع الغريب إلى قدر مبهمٍ..
تضاءلت أكثرْ...
وأحسست أني تنكرتُ
يوماً بزي المضي لأمن شهيٍّ
وخنت السطوح التي قد تعرتْ لآلهة الحربِ
حتى السماء التي قد تدلتْ

هناك تؤرجح حبل الغسيلِ
ليسقط ثوب محنطْ
وجورب طفل يموت على أرض ملعبْ
تلمست ذل الحبور وتلك السفوحَ
التي اخضوضرت في رمادي
لماذا تجيئين يا أم ذاك السجين إليَّ
فأشهرت في وجهي المستعارِ
مرايا دموعك ثم اختبأت
قليلاً وراء الجسدْ
وأحسست أني أميد برأسي
وعدت أواجه صرحاً خَربْ...



عـودة يوليسـيز

وما كان يعزى لموته هذا النحيب النحيلُ
خيوط من الماء كانت تدفّقُ
كيما تصب أخيراً وتهدر في بحر حزنهْ
وكان شقياً يباغته أيٌّ وهم شجي بأن يلتقيها
وكانت هناك تضاجع غيرهْ...
ويزهد حين تراه النساء
ولكنه كان يعشق زينتها
حين تهرب خلف الوجوهِ
ولا تزدري وجهه البربريَّ
وياليته لم يعدْ
ليدرك أن المسافات مقصلة القلبِ
أن الحبيبةْ
وقد غادرت نولها

وارتضت عاشقيها
فإن الذي قد يغيب هنا ميتٌ
لا عناق يرد إليه ضفائرها
كي يمجد أعوامه في البحار البعيدةْ...
فماذا سيعني القبيلة إن قد تحدى
إله الحروب وإن مات يوماً شهيداً
ستنعم هذي الخيام بجلده
وحين ستسلخه الأغنياتُ
سيهنأ شيخ الطريدة بالماء والمعز والغرباءِ
فيا أيها العائد المستباح انتظرْه
مع العابرين لتخلع نفسكَ
عن عرش هذا الغياب الطويلْ...



« ◆◆◆◆◆◆◆◆◆ »

«في هذي المدن الراسية على كتف الزيف هناك
أحدق الموت بها فاقترفنا الحياة...
بغداد كوني ضريحي
فأنت نزيف البلاد التي
قد تخثرت فيها
وكوني
فلا نملك الآن أو بعده أن نكون

في الحانة في الجرح وفي الخطوةْ
جرفتنا الضحكات لنكبرَ
في عهر النسيانِ
وإنّــا شجر مكتوف الأغصانِ
ومبتور البرعم حتى قبرةٍ
حطت تتفيأ ظلاً أعمى
ويبوح خريف الغابة بالمنفى

مخمور الريح ومغتسلٌ بسماءٍ
تبصق خيبتها
في لجة أرض لا ترحمْ
بيني بعد وبين الشارعِ
لغز الخطوة لا يفنى
ويظل يزعزع فيَّ وقوف الدهشةَ
لكني كهل في قبضته روح صباهُ
وعصاه ولا ينسى
طغيان الموت يداهمهُ
في شكل مدينةْ
نسيت في الضجر مآذنها
وتسرب من عزتها
عاشق ليلى ليصير النادلَ
في آخر ذلٍ ولأول مقهى
والكاس يدور يدور يدورُ
الأرض تدورُ
العمر لفافة تبغ في ثغرِ الزمن المجنون وليلى

آخر ما تركوه على صحراء القلبِ
رماداً فينا ويذرى
آه وليلى..
منتهك قيسك حينَ يطوف زوايا الحانة والمقهى
منتهك وأدك حينَ
يكفكف بضعة أكوابٍ عن سحنة طاولة صفرا
ماذا يدفعني الآن لأغفو
أن أحلم شيئاً عادي النكهةِ
من ثم لأ صحو
جسداً سيمارس ذئب هواهُ
ويحلم أن يشكم خيل صوابهِ
أو ينسى رسن الرغباتِ الطاغية البشعةْ
ثمة أسئلة لا تُسألْ...
يعتنق الحرب الوقت عباءته الحمقاءَ
يجوب تفاصيل دمارهْ
ويخبئ في قتلاه رماد الشمسِ
ويبحر رغم تعجرف مرساتهْ

ولآخر ريح لا ترحم
كانت تبكي
وتبعثر فوق الرمل محار ضفائرها
عبثاً كالوطن يغادرها
وتلوح منديلاً أعمى
مدن كالسفن تطوف وتطفو
أو تغرق في قعر الدمعِ
هنا شبت ورمت للنورسِ
كل فتات الحزن العاهرِ
أو رقصتْ
وسبات الجزر المشروخةِ
في جرح البحر يؤرقها
فيدب على كاهلها الموج
يعج رصيف العمر سنيناً بالعشاقِ
وقد انتظرت
ماتت فوق شواطئها
آلاف الضحكات وشبت

منديلُ الوجع الغجري يلوّح للحلم
المكسور على صارية القلبِ
وتصوّت ماريا
لتضيع نوارس صرختها
في زبد زحام الأرصفةِ
الباقية على جسد مبتور الساقِ وأكحلْ...
العالم في عينيها أشرعةٌ والوقت مناراتٌ
وسيخبو الحلم لتبحر كلٌّ مراكبها غرباً
وتضيع خطاها في شبح العائدِ
من قاع البحر ليطبع قبلتهُ
الباردة على وجنتها الموشومةِ
بلهاث الشمس لتدركَ كم كان العمر صقيعاً
أو كيف يموت الموج على شاطئها حين يعود إليها
من رحلة غيب ويفك تغاريدَ
النورس حين يؤوبُ وحيداً دون رسائلها
زاجلة أحزان الصدف العابرِ
في رمل الوقتِ

شباك تغرز في عمقِ حراشفنا أوزار الموتِ
الآتي من رعب الموجِ
فكيف نعودِ من الشط إلى قاع البحر وكيفْ.؟.
أدركنا المدُّ وكنا
جزراً في قعر الحربِ
وكانت ماريا تُذبح فوق شواطئنا...

* * *

يندر هذا البازغ فيك
أن يتضور صمتاً
كي تتموَّتَ فيك بغاياهُ
وتجلو آثامكَ من
وجه مراياه العاكسة هنا
رجلاً قد أدمن فن الحربِ
أغتصبَتْ طفلته العذراءُ على فخذ الملجأ..
في قامته الجائحة تفاصيل الغزوِ
تداهم حجراً قد وطأته عيونُ ملايين القتلةْ..
وتجول فيه برابرة الزمنِ المذبوح على ضفة نيلٍ

للكأس شفاه لن تعتكرَ
بنخب الموت فلم يأتِ
ليبوح بأسرار طافيةٍ في جثته لكنْ...
بين حقائبه أشجار الوطنِ
الغابر شبه محطمةٍ
وتلاشت فوق محياها
آلاف الدمعاتْ
وهرعت لتعانق جثته العائدة رماداً
من جحر الحرب وماتتْ
كفّنها بذراعيه وآسُ القبلة منحور في شفتيهِ
لهذا اليابس فيك بساتينُ الغبطة من فرح الفقراءِ
بصوتك حين تعالى مكتحلاً بضجيج الموتِ
وحين توالت فيكَ توابيت غزاة الأرضِ
فكيف تعود إليها شريداً
بين حقائبك الوطن المحزومِ
تشد قوافيك لآخر منفى..
وتجول مقابرنا صمتاً صمتا

وتهاجر في معتقل القلب سجينا . . .
لن يتبقى من هيجان البحرِ سوى الأصدافِ
على شطآنِ الوجع قتيلةْ . .
بعد السفن تصير الأشرعةُ
إليك هواءاً يختنق العائدُ
من وطأته على الميناء المسروقِ
الأضواء وتحرق ماريا
كل مناديل الفرح المشرع
صوب الريح وتندي بعضُ
خطاها بالأيام ولن تغدو أمتعتي
غير صخور تنتظر النورسَ
كي يتكسر في خارطة طحالبها
حتى حين ستفقد كل الشطآن مراكبها . . .
نتوخى أن نختلق لنا زورقنا
كي يعتقنا من جوف الوقتِ
ومن جرح سدانا الضاربِ في الغربةِ
لا أجرؤ أن أذكر نفسي

يدفعني الوجل إلى تهلكة الصمتِ
فأذكر جرذان الزمن المتعفنِ
تهرع خلف خرائب ذاكرتي
وتداهمني كي تحتل دهاليزَ الجسد المزمع أن يحيا
ويزج بهيكله الزائفِ خلف ثياب الألق الفضفاضةِ
علّي أنجو من هلع هزالي
حتى حين ستفقد هذي الأرض براكين مجازرها .
وتهدمنا
سنرمم في كلٍّ هنيهة كذب آتية لنكابر فيها من كنا
بغداد المرآة العالمُ
فضتها تبدو كرصاص حينا
ونحاسيٌّ الحرقة في كل الأحيانِ
ونحن ظلال القتلى
في رمتها العابقة بأعمدةِ دخان الورد الأطفال الأسرابِ
العائدة إلى وطن هاجرَ
في ذات خريفٍ
- أي ربيع بعد سيدرك

وجهته الضائعة وأي منافٍ
تأويهْ
العالم جزر غارقةٌ
بضعة أعشاش تتمرد في
قفص واحدْ..
ولأنا أدمنا التجوالَ
سنبكي هجرته وسننسى
لنعود نمارس هجرتنا
في الزمن الفائتْ..
لا أقوى بعد الآن الفاجعِ أن أفقد مرساة الحلمِ
وأن أفلت من رسن القاربْ
إني وبرغم قراصنة اليأسِ المفتون بجبني
تعودت مجاديف الأمل الكاذبْ
فلعل الله سيولدُ
من كفر الورد ومن أنقاضِ الزمن الملحدة ولكن
لا يتسع القلب إلهاً آخر أجوفْ
لن تكتنف الأرض نبياً أخرقْ

لن تتدافع بعد الآن
قرابين البشر إلى محرابِ
القمر الجامحْ..

* * *

عزيفاً سليب الرياحِ
عهدتكِ يا عاصفةْ
هواءاً يشي بي لليل تعرّتْ زوابعه باكراً
فماتتْ
على الدرب كل الوريقاتِ
مجتثة من خريفي الطويلِ
فهلا رأفتِ بطير يودّعُ أحداقه في دمي
كي يعود ضريراً ليؤمن أني أبصرت أعشاشهُ
مرة ثم مت غريباً عن السربِ في غيمة قاحلةْ...
سأمضي لأني تشربتُ أن العبور الصفيقَ
على جثة الورد شيء
من الرفضِ
مهما حدانا البكاءُ

إلى هذه البرهة المرّة
الآنَ أوقن أني سأتركُ نفسيَ خلفي لأدرك ظلّي
وأجبل عبر اللهاث الحثيثِ خطيئة خطوي
وساماً يؤرّخ فيكْ
الحروب التي لم تخضُ
وعقم الجراح التي اثخنتك
لأن الوقوف جريمة من يرفضون العبورَ
فحتى الورود تشيح وتبعد عنهمْ رحيق القبورْ
- هنا يسقطون إلى غيهب من سبات الضميرْ
ونحن الذين سنحصد من موتهمْ
ذات إثم قصيد الخلودْ...
لبغداد عينان رمليتانِ
ووجه غريبْ
لها جسد امرأة من نحيبْ
ضفيرتها شارع قد تدلّى
على كتف صوب نهدٍ
شريدْ..

وخبأتُ فيَّ عناقاً لهيكلها السرمديِّ
وشوقاً لحنجرة تشرخُ الريح أوتارها اليوم في ليلة باردةْ...
لها العمر آنية تجمع الوردَ في كل يوم يموتْ
ويترك أوراقه في بقايا ثمودَ
فكيف تُزجين في حانة الغربِ
غانيةً من نبيذٍ
وكيفَ تصبين كأسي لأنسى
بأنك ساقية سومريّةٌ
وأني نزيل رخيصٌ رخيصْ
فشارعنا قد سباه الغزاةُ
فكيف أعيشُ
وما الفرق إن كنتُ
قوادك الآنَ
أو نادلاً في مقاهي الرصيفْ...



كـــارمـــــن

هل تستحق السلب من يوم القيامةِ
بيننا يعد انتحارين ثلاثاً من رجال الثلجِ
والقصص التي ابتدأت طويلاً
هل ستغفو أيها الغجريُّ تحت عباءة الغيم المعفر بالسفر
من ثم تختار ارتحالك نحوها
كي تستجيب لجلدها الرخو الذي
سلخته فوق سرير من عشقت سواكَ
وقد تلوذ بصدرها كثبان نهديها
التي انتفضت على ثغر متيمْ...
ورمتك خلف وسادة العشق الضريرِ
وقد رجعت الآن محتكماً
لمقصلة من الحب الذليلِ فلم تجدها...
قدر بأن تسلو ضفائرها التي

انتشرت على جسد غريبْ
هي حرة مثل الهواء الطلقِ أو مثل الحريقْ
لا تترك الرجل الذي يحظى بها
إلا رماداً فوق قارعة الطريقْ..



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

سأرحل يوماً...
وبي رغبة بانتزاع السنين الأخيرةِ
من قسوة الاغترابِ
فماذا وراءك يا أيها الوطن المتسللُ
دوماً إلينا ؟..
بهيئة وجه جميل يحق له الآنَ أن يستبيح النساء
وأن يعتلي سرج كل الرجالِ
ونحن اليتامى
تعودت أن تنهب الدهرَ أحلامنا كي تعيشَ
فلا نحن يوماً وصلنا
ولا أنت كنتَ
فلا تقتل الآن أبناءنا مرتينْ
ودع للرحيل قواربه

علنا نستريح فنلقاك في شاطئٍ
نورساً أو مناراً
وعدنا بأن الذي بيننا من دماءٍ
سيبقى يلطخ بزتك المسرحيةَّ
وأنك سوف تذكّرنا حين ننسى
وتذكر وجه الأراملِ
حين تضاجع عاهرة ذات نكسةْ...
وهل أنت حقاً شوارع بيتٍ
وكأس وحب وأشياء جمّةْ
وهل أنت من قد أرقت سوانا
لتجرع نخب سلام بذيءٍ
وكيما تجالس ريتا
فمن ذا الذي يخذل الآن
أنت...



« •••••••••• »

كضوء بسيطٌ...
تمر خلاياك في عبء هذا الوجود السليطْ
وأحسست بالشمس تسحق فيك الحضورَ
لتصبح أدنى شعاعاً
من كل هذا البصيص الوضيعْ
وأنك خيط تهتك كيما يصير النسيجُ
سيرميك نول الحياة على أرض هذا الوطنْ
كسجادة للعبيدْ
ولا من يرد إليك دواليكَ
عمراً سحيقاً تبعثر فيه النشيجْ
فألفيت نفسك ملكاً لأي رصيفْ...
فتات من الناس في مكتب مضجرٍ
فوق رف عتيق واسماً ورقماً
شهادة موتك مثل شهادة أي وليدْ

وبعد الكثير من اللأي لن يعرفوكَ
ولن يحملوا وجهك السرمدي إلى الواجهاتِ
فما كنت يوماً جميلاً
ولا عالماً يستهل النبوءة كي تستحق الكثيرْ...
ولا شاعراً قال ما كنت يوماً تحسُ
وتعجز دوماً عن البوحِ
وقد أخجلتك الصبايا اللواتي
مررن على باب قلبكَ
لم تستطع أن تبوح بوردةْ...
فلن يذكروا غير جار شحيح وزوجتك العاقرةْ
وبعض الذين حملت لهم شايَ
تلك الصباحات بالنعنع الآدميِّ وآنية القهوة الباردةْ
- قرقعة للكؤوس ونافذةٌ -
لقد كنت دوماً تطل على
شارع العمر ذاك الذي أوصد الجائرونَ
لتبقى هنا نادلاً للجميعْ...



شــهيد التوقــف

كثيراً ما طاردته المسوخُ
وألفى ذراه تدحرج نحو الحضيضِ
وأدرك أن الجنون قريبٌ
وما أوثقوه لهذه الحياةِ
بغير خيوط الصوابِ
وكان يدور ويصحو على نعله المهترئْ..
واقفاً كان حيث سيصبح حيث وُلدْ...
ولن يعرف اللاهثونَ
دواراً يفوق دوار البحارِ
فقد أبصروا خلفهم ما يحض خطاهم إلى طرق للهروب
وبعض الذين يدورونَ
قد أبصروا في الأمام غنائمهمْ
هرولوا بعدهم...

ولكنه لا يهاب الوراء ولا يعشق
الآن حتى الأمامَ
توقفْ...
تعثر يوماً به واحدٌ
وألقاه تحت الصرير وداس سداهُ
ولم يعترف بالذي يسقط الآنَ
في الوحل كان رفيق الهراء الطويلِ...
لماذا سُحِقْ ؟!
لأن الحشود التي قد تلته تهرولُ فوق الكثيرِ...
ومعصوبة القلب باللأي خلف الفتاتِ
سيحمل يوماً وسام الوقوفِ
إلى قبره ذائع الموت محتضر الأمنياتِ
سيعرفه بائع الورد عند الطريقِ
سيذكر كيف يلاطفهُ
ثم يسأل عن جوهر العيدَ
حين يكون على جثة الزنبقةْ...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

للريح في قلبي دويٌّ من دجى يدنو ويبتعد المساءْ
وأكون وحدي أكثر الأشياء من حولي
ولا تتلفت الأضواءُ أو اني انتظرتْ
نجماً يعيد إليك ظلي
والنجوم قليلةٌ...
يترنح القمر الغريبْ مهاجراً
والريح تسقطه رويداً في الفراغْ
وأنا المحنط في يباس كهولتي
أتسول الوجه الفتيَّ من المرايا
والعمر يسبقني فأغدو طفله الحابي
وغداً سأذكر أنني قد كنتُ
يذكر أنه ما كانَ
فافترقت سمائي عن سحابته الأخيرةِ

وانتهى فينا الشتاء القحطُ من زمن الجياد
صهيل أمطار شحيحةْ...
في الشارع الخلفي أغنيةٌ
حفيف الموت بين مداخن الأحياءِ
أو شبح يحدق في النوافذِ
يرعش الأطفال تحضنهم خرافات كئيبةْ...
وأنا التي صدقت نفسي
آمنتْ أني جسد
فتركتني أغفو على الكرسيِّ
خلف العمرِ
ضائعة دروبي عند ناصية التردد ألف مرةْ...
كأسي بكأسك يا غريب الموتِ
نخب للذي كناه قبل تكشف البرقِ
جثث تفوح من الخنوعْ
غرقت وأغرقها الظلام لتستعيد هراءها المجنونَ
لا أحد يرد الآن ذاكرةً
من البرق إلى عينيهِ

كيما يهرب الغثيان من نفحات أتربة القبورْ...
ماذا سيعني أننا عشنا قليلا
واقترفنا الصحو من حرب لأخرى ثم قادتنا خطانا
أو خطايانا الكثيرة
نحو حانتنا الأخيرة...



احتضار الياسمين

«إلى الراحلة بارعة بدورة أغلى
رفيقة طفولة وأكبر فاجعة صبا»

ستبقين أنصع من ياسمينِ البلاد الذي يتسلّقُ جدران صيف رصينْ
تظلين أجمل من طفلة كنتِها
تركت ظلها في زوايا طفولتنا
نتضاحك تطلب مني المزيدَ من الرسم في عصر يوم قديمْ
وقد كنت أرسم بيتاً تحبينْ
من كان يدري بأنك لن تملكيهِ وصرتِ ملاكاً يجوب السماءَ
وفي أرضنا الآن لا تسكنينْ...
وأرسم شمساً ستشرقُ عشرين عاماً وتطفئ بعد رحيلك كل أشعتها في ظلام السنينْ..

وكم قدرسمتِ عروساً ولم تبلغيها . .
حقولاً ولن تطئيها
فمن كان يدري بأنك قد تصبحين
صدى قلب أم حزينْ. . .
وذاكرة من حنين



إكليل على ضريح امرأة لم تمت

إلى الفقيدة الغالية أم إبراهيم وزوجها الوفي هذه الكلمات القاصرة شاهدة على وداعكما في المطار المتوج بقبلة أمل يائس وتمتد حتى قداسها الذي فجعنا بموتها المبكر البائس.

كان ولا يزال لبحر عينيك السحيقِ الآن ميناء لموجة دمعةٍ
تعلو وتغرقها طويلاً في خبايا حرقةٍ
تنساب من شفتيكَ
مذعنة لآخر قبلةٍ...
تخضر في صحراء جبهتها التي
شمخت على واحاتِ
سحنتها الكسيرةِ
من تكونْ...؟
وجه على وجه ينوحُ

وتتكئ ابتسامات على أخرى
وتنكفئ العيونْ
كل يلملم من أصابعه الخليةِ كأس ما تركت من الأحزانِ
يجرعها ويحلم نخب عودتها إلينا
ضحكة تغتال من أقصى زوايانا
وجوم الموت من يدري
فلربما...
ستعرج الآمال فينا ذات فاجعةٍ
لتمحوَ ما ألفناه من اليأس الذي
وصمت كوارثنا به...
لمَ لمْ تعرج يا أمل...؟

* * *

أنا كم غرقت لقعر أحزاني الفراغ
ولملمت الدنانير التي لم تكن تكفي
كي تشتري إكليل غربتها الأخيرةِ
فانهمرت على تراب مدينةٍ
لا يستطيع الحزن أن يبتاع نرجسةً

فأبكي...
قتل البنفسج لم أعد حبلى الصقيعِ
بباقة أخرى إلى تلك التي
رحلت ولن تأتي
فلك الشتاءات التي بقيتْ
ولي ورقي ومحبرة الألمْ..
صمت تكفنه أشلاء ضحكتكِ
وتذبحني الصورْ..
طوفان دمعته التي قد أغرقتْ
حتى القمرْ...
لَمَ لمْ تعرِّج يا أمل...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

سنيناً نحن لا نرتاد أنفسنا
ولا أسرجت ذاكرتي لتجمح
في بيادي القلبِ
صادفتكْ...
ولا قمر توجس عتم موعدنا
ولا نخب يوحدنا
تحاذيني أشيح عن ابتسامتكِ
فلا بحر هو البحرُ
ولا وجهٌ يعيد إليَّ ما اغتصبتْ بحار الغربة العمياءِ
لم يرجعْ...
وضلَّ الآن خلف البحر أو قبله...
ضجيج عري مقهانا
وجوه من غبار الأمس باهتةٌ
فكأس للذي غنى

وقد خانته حنجرتهْ
فمزق فيَّ أوتاره
على أطلال أغنية مصدَّعةٍ
يروق لنا بأن نبكي
لمن أبكي ؟!
لمن غنيت ثم نسيتَ
مائدتكْ
ومائدتي
تغص بشهوة الفقراء
من نحنُ ... ؟
سوى شبحين
قافية مهشمة وصوت مسه الطوفان ...
- طروادة -
وروما تصهر الآلام ماثلة
وما حطت على النخل القتيلِ
وفي أعماق بغدادَ
مساء الموت أغنيةٌ....



تضل شوارعنا ذات خطوة
فيكسر فينا النشيج تراتيلنا
ثم ماذا ؟!
قبيل وبعد وأبعد من حزننا
خيبة فارعةٌ...
وها قد ألفت البكاء فكيف تغادركَ الخيبة الفارغة
وهذي الدموع غريبةٌ
وتنساك حين تجفُّ على وجنة المستحيلِ
فعدني ببيت وعدني بأمٍ
وعدني بكأس من الشايِ
عدني بخبز وزيتٍ
ولا تجعل الحلم حلماً قصياً
كما كنت يوماً عن الأصدقاءِ
كما كانوا

فلا الحب قد جنّح القلب فوق الرمادِ
ولا الأرض تكتنف الآن جدوى العذابِ
لماذا المدارُ؟
ودربك يفلت منكَ
أصابعك العشر قد تتساقطُ عن غصن كفك عند خريف الجسدْ

وتبقى بساقيك جذرٌ
يشرش فيك الوقوفَ
فتنسى الدروبَ
وتطلق نحو السماء ذراعكَ مبتورة كالأزلْ..
وأخلو إلى نفسي
فتغدو المدينة غارقة بالصورْ
وتنهار مزولتي ... والقمرْ

* * *

وتبقى الشمس لا تعني سوى الزمنِ
المبدد في الفراغِ
ولا ظلال قد تعيد العمر ثانيةً

مدارٌ كل أحلامي التي انكسرتْ
فقد عشنا لكي نرث السماواتِ
وما وصلت أصابعنا لغير سقوفنا
ستظل واطئة ولن تتطاول القاماتُ
حتى الغيم لن تستنشق الأشجارُ معنى الخطو
يبقى الحلم أن نشدو بأكثر من حناجرنا
لهذا سوف يبقى الحلم قاتلنا
ويبقى تحت هذي الأرض مقبرةً
تجذر في مدافنها شواهدنا
لماذا الحب يعبرنا
ويرحل مثلما برق الشتاءِ
فتهطل الأحزان ثانيةً..
ولا يبقى يذكرنا بمن مروا سوى العشب المبلل والمزاريب الشجية
قبلة سقطت من الشفق المسافرِ
مثل نجماتٍ

وهل أدركت أني صرت أقصوصةْ؟
وذاكرتي التي شحبت وهل كنا ؟
سندرك أنها سهواً تبعثرنا
فهل تتصالب الطرق التي افترقت...؟



« ********** »

ما هاود بعد صباهَ

ليحمل عكاز الهرم المزمنْ

لم يترك خلف جنون كهولته

شيئاً إلا من أسئلة فادحة ما حان رجوعي نحوهْ

أتساءل هل كان الجسد المتشكلُ

في قامته أقداماً قادرة أخرى؟!

تتخطى أبعد من هذي الوقفةْ

كي تجثو عند تخوم الأحزانِ...

هل يسرق هذا المتراجع عمري

أم أني قد أستبق طفولتَهُ

لا عاش صباي ولا عشت الدفء المتراخي

عند غرور كهولته الشامخة

باحجيته الحكمةْ...

كان الرسن الأشيب عند جموح الخطوةْ
كنت الطفل الأحمق في أعراس النزواتِ
ولكني صرتهْ
قد أيقظه فيَّ الزمن المتراكم في تلك السنواتِ
وأبعاد اللحظات العاجزةِ
عن الزمن الفائتْ..
وشعرت بعمري كم يتغضن تحت نعومة جلدي
كم يستفحل ذاكَ الشيب الخافت تحت تفحم شعري
فرويدك ياهذا المتوغلُ
في شلل الشيخوخةِ
عند ربيع مفاصلنا الهشةْ
يتفتح قلبي في أغصان ضلوعكَ
نبضات تأفل كي تعبث بالحبِّ
وكي تلحد أنت الساخر أبداً بدمائي
أتداعى قهقهة زاجرةً
نتزامن حيناً عند رصيف الأغنيةِ
قبيل نبيذ الحزنِ

نتجرع كل الموت المترقرقِ
في دمعة طفل أشيبْ...
ها قد أبصرتك ظلاً يتركني
هلعاً يتهرب من جسدي
يتتبعني أم أتبعهُ
لا يُعرف من منا ظل للآخر...



« ••••••••• »

يراودني الضعف أن ألتقيكَ

فأغمدت نفسي

وأرجأت هذا العذاب النديَّ لحب جديدْ...

فهلا استطعت انتزاعي عن صهوة الانتظارِ

وهل أستطيع..؟!...

بيننا ثرثرات على البحر عند الأصيلِ

وأشياء لا تستطيع الترجل عن حزنها

في المساء ولا تستطيع المثولَ

إلى الدمع من غير أن تغسلَ القلب من صدأ المستحيلْ...

أحبك نافذة ستطلُّ على فجر من قد أحبوا

وماتوا قبيل المغيبِ

وفي افقهم وردة ذابلةْ...

وعلّمتَني...

هو الموت سهل ولكننا الأغبياءُ
الذين تشبَّث أرجلهم بخيوط الحياةِ
التي تتهتك في أي خطوةْ
ونبقى عبيد عناكبِها
خوفنا أن نطيرَ
سيجعلنا كالفرائس في فخها مرتينْ..
مرة حين تولد في الشرنقةْ
وأخرى نموت بداخلها خائفينْ
فهل يستحق القليل من الأفقِ
هذا السقوطُ الأخيرْ..
لكيما نطل على ما وراء المدى
ثم نقفز في الحلم تأخذنا هبة الريحِ
نحو البلاد الغريبةِ
كيما نموت على أرضها آمنينْ....



« ✦✦✦✦✦✦✦✦✦✦ »

تبدى لها وجهه في زحام انتظارٍ
على ليلك نابضاً بالمساءِ
فتدنو إلى شفتيه لترتشفَ الآن بسمةْ...
ولكنه قد بكى جافلاً
تاركاً صدره مسرحاً للرياحِ
ولم يقتنع بالبكاءِ
فعادت إلى ظله تهتدي بالزمان اللزج...
عاد يوماً إليها ولم يغتنم أمسه الرحب
كيما يباغتها بالقبل..
فخانت غياب الجروح بضحكةْ
تنامت على وجهها مرة فوقَ كل اليباس وأضنت شواهدها
زغردت: من يجيء إلى الحي منتصب الظل غيرهْ...
ولكنه أحدب عاد يجثو

وفي قلبه قصة عن شريدٍ
تدنسه الغربة البربريةْ
وعن رجل ما اكتفى بالرحيلِ
فأفضى إلى جزر خلبيّةْ..



بأكمل قامته ينحني فوق مشهدنا مثقلاً بالرؤوس التي
تتدحرج تحت بصيرته
ثم تترك أعينها الآنَ مفتوحة الضفتين على قدميه
توقف يعجز عن خطوة تاليةْ...
وأخطأ قامته الموت
أو ربما استوطن القلب
كانت مشيئة هذا القدرْ
أن يعيش ليشهد إخوتهُ يسقطون
ترا ءت له خيمتهُ
كأثمن من أي قبر مشرَّفْ
أدار لهم ظهره ثم ظل
سنيناً يحدق في داخلهْ..
فهل عاد من كل تلك الكوابيسِ

حياً ليملك بيتاً يقايضه بالكثيرِ من الذاكرةْ...
عله يملك الآن زوجتهُ
لن يحدث أطفاله عن ذويهمْ
ولن يعرفوا وطناً غير هذه البيوتِ
التي يتواطأ اسمنتُها
سيكفيه أن يشعل الشمع ليلاً
لكي يتألم كفارة ثم يكتبْ:
وللأرض دوماً حقيقتها
أنها كوكب ماجن ولي كذبتي
فما أنذا كائن من بشرْ
لها جنة قايضتها بتفاحةٍ
ولي وطن سأقايضه بالرغيفْ..
ملكنا مدارين يلتقيان قبيل الكوارثِ
يفترقان على باب كل الصغائرِ
أغدو وحيداً
ولن يتزامن نبضي ودورتها بعد حينٍ
سينطفئ القلبُ

يبقى المدار يدحرج كوكبه الرحبَ
فوق القبور ليولد في الأرض غيري
يلائمها الآن أكثر مني
ويبقى بعيد المدارات عند الكوارثِ
كي لا تداهمه رغبة للتقيؤْ...
سيأخذ طوفانها الخارطة
وأبقى على الوحل ثانيةً
طريح السنين أفتشُ
أين تضاريس بيتي ؟
فكيف ستسرق حين التصالبِ
هذي الكواكب دربي؟!...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

وطن الغريب نبوءة المنفى
وأوراق تطاير في مهب الشعرِ
تحميك السماء من التبعثرِ تحت نافذة زجاجية
والسقف يرشح منذ بارحة السنينْ
يا غائب الشفتين في قبلة..
تتسكع الأهواء في أعمارنا
فهموم من ظلوا بلا حلمٍ
ليجعلهم رجالاً من جديدٍ
غير أن القلب يسكنهمْ
ليفتح جرح جدواهم على ملح الطريقْ...
بيني وبينك طحلب الزمنِ
ولزوجة خضراء قد تستوطنُ الصخر المفتت تحت صارية
الحدادِ فهل وصلنا..؟

بعدنا لن تسأل السفن الموانئَ
من همُ ركابها الباقونَ
لن يرث الهواء الرطبُ أغنية النوارسِ
لن تصافحه الشواطئُ
رملها الغجري تذروه الرياحُ
ولن تطل من الزحام الرحبِ
تمنحه وساماً من دم الغرقى
يباركه سريراً دافئاً
كأس نبيذ رقصة تتسلق الليلَ
على جسدين من خشب السفنْ...



« ••••••••••• »

عداك سيحترف الصمتُ قول الكثير من الكلماتِ التي
تتدثر بالموت كيلا تفاجئها في توابيت من ضجر خانعةْ..
وسوف تناثر أهوالنا في المدى كي نعيش صغائرنا
مذعنين لآخر ما كان في القلبِ
لا يستوي الخائفون من الحربِ
مع من قُتلْ ...
ولا أشبه الآن نفسي إلا بما سوف يكفي
لكي نحمل الآن اسماً وحيداً
وشاهدة واحدة...



« ••••••••••• »

لعل المساء سيمهلنا وقفةً

قبل أن يتحنط هذا الخرافي في وكرهِ ثم يذوي

ويأخذ ليلتنا نحو مرفأ

نجمته باكراً باكراً

مثل موت مؤجلْ..

ومثل الرسائل تسبق قبلتنا ثم نقتلها في الكلام الرخيم الذي

لا يصير عناقاً وجلجلةً تستحق المغيبَ

أريد بأن أصبح الآن نفسي

لكي يزهد الحزن بالدمع كي تستريحَ العذابات يوماً على غصن هذا الربيعِ

براعم لا تتفتح قبل الشتاء

فكوني من القلبِ يازفرة في شروقي

تميد بماقد تبقى لنا من الفرح السرمديّ
وما قد تبقى لنا من عشائر رغباتنا
علنا نترنح دون تهشم أوراقنا تحت نعل غريبْ
أحبك حين تدوي الرياحُ
على ضفتيك وتتلو جداول صمتي خريراً يؤرخ موتي
ويكتب سر النشيج الذي يتبلل بالشهقة الآمرةْ..
وثمة ما يتعتق في جوفنا مثل هذا النبيذ لنشربهُ
نخب عيد يبادلنا حزنهُ
بثوب جديدْ
أحبكَ فاسمح لهذا الجسدْ
بأن يتشعب ثانية في ضلوعكَ
يخطف منك ارتعاشة قلبٍ
تذكرني أنني حية بعد لم أهترئْ
أن كفي امتداد لتلك الذراع الكسيحةْ...
وأن ضلوعي ستنشق هذا الهواءَ
الجليدي من غير أن يعتريني الزكامْ...



« ◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆ »

تتوازع الطرقاتُ
ركاباً من العرباتِ
- ينتظر الطريق .. -
عجلاتها طحنت مداه ولم يصلْ
بعد الكثير من المحطات القليلةِ
نحو أي حقيقة لهثتْ
لغايتها الجموع فتنزوي
بضع انعطافات لتذرفَ
في انهيار مدقعٍ
قدر النعال ولعنة العجلاتِ
قرب شتائم الحمقى ومن ضلوا..
وعر سيلفت نحوه البصرَ
وستصبح الأحزان نداً لا يليق بنرجس الأحجارِ

يبلغه الحطام نذير شؤمٍ
للذين سيحضرون جنازةَ
الدرب المكفن بالبياضِ
أولستُ من شقوه من غير الحدادِ
ويسلخون جلودنا الحنطية الحمرا
ويطفّئ الجلاد أعيننا
لنصير من اسفلت هجرهْ...
إذ طالما يتهرب الدربُ البعيد
مستقرئاً أحد السفوح
وما استطاع بأن يفر من الخطا
كانت معبدة المدى أحلامهُ
ملك لمن يمشي على مأساته السوداءِ
محتفظاً بذاكرة من الوعرِ الذي مسحوه
كي تتبختر الخطوات دون عناءِ من رحلوا إلى الفردوسِ
لم يصلوا ولن يصل الذين هنا
لأن الدرب لا يغفو
وليست تغفر الأحجار قسوتهمْ

ولن يتذكر العشب الذي
قد كان أحلام الهمجْ...
تتشاءم الطرقات من وقع الخطا
وتحط بين الشارع المخصيِّ والوديانِ
قافلة من الغجر المصلينَ
الذين بهم ستبتدئ الحياةْ...
لرصيف شارعنا عيونٌ تقتفي وهم الدروبِ
وللمساء نجومه العشراتُ
من شهب تضيء وتختفي...
أما النساء المولعاتُ بصب كأس للغريبِ
فطبيعة أخرى
المنازل والأواني
نكهة غير التي يعتاد زوج مستريحُ
أن يداهمها فتذبل في السريرْ...
وللرجال عيوبهم في حب أي صبيةٍ
مرت على القلب المعفر بالضجرْ
للطفل نزعته البريئة أن يحطم كل آنيةٍ

يصادفها على رف كئيبْ
للدروب جنونها الأبديّ
أن تخفي المدى
ونهاية الطرق التي اختبأتْ
وراء الغيب منعطف سخيٌّ
قد يداهم نعل سائرة لتدرك أنها ضلت ويعجبها
الوصول إلى ظلٍّ جديد...
ولنا تفاصيل تعلمنا
بأن العين نافذة مخادعةٌ
وأني قد أرى يوماً ملامحك الجلية بعد غامضةً
وأني لست أقدر أن أفكَّ خريطة الكف الممدد تحتَ دالية
القدرْ..
للأرض بهجتها الأخيرةُ
في اعتراف الشمس بالليلِ الذي يتلو أشعتها
وبالمدن التي انتصبت على صحراء رغبتِها
وبالبحر والسفن الغريقةَ
بالنجوم تريق عتمات المساء

على ضفيرة طفلة لهثت لتلتقط القمرْ.
من قعر بحرتها الجميلةِ
أو هوت جسداً تعفن جثةً
تطفو على سطح الورقْ...



« ********** »

هي ذي النوارس ياصديقي

ستسلُّ أجنحة وتغمدها طويلاً في صدور البحرِ

يغرقنا الرعَافُ

ولا نريد بأن نموت قبيلَ أن ترث الموانئ قارباً يرسو

يذكر بالوصول وينهب الشوق العريق

إلى الشواطئِ

لا تضلً

الآن إني قد ضللتُ وأترك السفن التي بقيتْ على زبد الدموع لتشرعَ

اليأس المكسر بالأملْ

فات الصليب وما استطعت الأمسَ

أن أغتال أزمنتي لتتركني الحياةُ

البكر أمخرها بلا وقتٍ ولا موتٍ يفاجئنا

ليسد في الأفق المدى
ويراقص الأمواج كي تنحل فوقَ الصخر ويترك الطوف المهشَّمَ
تحت أعشاب المحيط قصيدة أخرى
ليرتجف الورقْ.
فقصيدة أخرى ستُميت عشاقاً تميت العاشقين على الطريقْ
وقصيدة أخرى وينبلج الحريقْ
ولا يظل من الشموس العائدات
من الفضاء الرحب غير الوهج والعجلاتِ
تمحو كل ما ألف المسافر من مسافاتٍ
وطرقات ومن منديل طفلته
تودعه يرفرف في سماء الريح راتيه
التي بقيت لكي يتجنب الموت وحيداً
حين يخذله الوصول إلى الحلم..
ماذا سيجدي الآن أن نسأل؟
وهل أدمنت أن أقبل

أنت الذي طاردت ظلك
وأنا التي هرَبتْ من الظل المهرول خلف قامتها...
إذ طالما كرهت بأن تتبع الشبح الذي قد كان يشبهها
ويجبرها بأن ترضاه مزولة
لهذا العمر في صحراء هجرتها
وكما استفقت لتبصر الدرب الطويل
تعرُجاً يفضي إلى الغيب
الممزق بالنبوءة والخطا...
أصبحت مطروداً من النسيان
ذاكرة الضياع الخصب عند المنعطف..
لا يجدي المسافر أن يعود
فلا دروب قد تقود الآن خطوته
إلى حيث ابتدأ
شرخ سفصله عن البيت الذي ذبلت نوافذه هناك
وغربة تصطاد لوعته
لتنهمر الكلام الغض أوراقاً خريفية
ويدوسها

في وكر غرفته الوحيد
لا تشيخ ولا يداهمها الضجر...
ومنصة أخرى سنعلوها لنبني الآن مسرحنا ونترك في كواليس الوراء الصعب
أوجهنا أحبتنا رسائلنا
ولن يتعرف الجمهور غصتنا
أو حين تنسدل الستائر
تطفأ الأنوار في الليل المخادع
قد نعود إلى الفناء لكي ندندن كالنوارس فوق طوفان من البحر الذي قُتِلَتْ شواطئه
بهجرتنا إلى الجزر القريبة
قد تعبنا..
لا منارات ستكفي القلب كي يعتاد رحلته إلى المجهول.
لا أحد سينتظر السجين على أبواب فرحته بأول ليلة هربت من القضبان
لا أحد سيسأله عن الجدران حين طوته خلف مجاهل النسيان
كيف يعود مشتاقاً إلى الشمس

التي عرّته من ظلمات أقبية
حمته الأمس من جوع ومن موت
في الأرض ما يكفي من الغفران
- لا تبكِ..-
لنيسى الناس موتاهم
وكي نرتاد مقبرة بعض الورد
لا وقت يطيل الآن وقفته على
نعش من المدن التي
طمرت كنائسها رماد الحرب
لا وقت يطيل العمر
عند جنازة الموتى
ليصفح عن غيابات الصلاة
ولا عزاء للأرامل غير عشاق
من الأسرار تحت ثيابها السوداء
كي لا تصبح الأيام تابوتاً لرغبتها
ككل مساء...



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

برد وباب السجن يرتكب انفتاحته

والضوء علق مشجباً لأشعة الشمس التي تسري ملوحتها

على القبو المجرّح بالضياء فيرفع الكف المغضن نحو عينيه

ليحجب عنه مرآها...

ويهرول النمل المعشش

في زوايا السجن

كي يختار ظلمته

وتفوح من حزن البغايا

متعة النزوات حين تبح

بالصدر المدلى خيبة الصلوات

لا أحد يجرجر قامة عجلى

ليهرب خلف أسواره...

يحار الآن سجان ويغبط عالم الأسرى

لون الباب منفتح لديه الآن

كي يهرب إليهم

عله ينجو من الحرية العزلاء

في مدن مكبلة شوارعها

فلا تمشي

وما معنى بأن تختار وجهتك

التي ضلت قبيل قدومك

المجنون للأرضِ...



« ◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆ »

قدر بذيء لم يرد
جعل النبوءة مرة
تبقى مصيراً نائياً
لحبيبة عشقت مسارحها
ولفافة التبغ
المصادفة البريئة
متعة العشاق تحت نوافذ ثكلى
وأنجمها السحيقة تستبيح
العتم من أعلى قصائدها
فلا قمر يعيد الآن فضتها
وليس الحب زنديقاً
ليعرف أنها انتظرت بكارته
وما كانت سوى امرأة

من الطغيان والحلوى
تريد الآن أن تحيا
وأن تتعرف الدنيا
من الأجساد حين تبيح عورتها
لضوء القلب والمقهى
ولم يحضرْ
وقد ظنته منتظراً قصائدها
مغادرها ولم يأت
والعمر أزمنة من العشاق
منتظرين بهجتها
وما وجدته فوق فراشها يوماً
وما عثرت ضفائرها على كتفيه ثانية
فضل القلب في ميدان لذاتها
وضاع العمر في بحث سيدعى
العهر في أنحاء حارتها...



« ✦✦✦✦✦✦✦✦✦✦✦ »

هو البحر يشرب أنهاره
ويظل الظمأ
هي الشمس تمتصه بهدوء
ليصبح غيمة
تؤرجحها الريح بين البلاد الكثيرة
ثم تموت على كتف البردِ منهارة في النحيبِ
فيحضنها شارع جانبي إليهِ
ويغسل كفيه يصبح رطباً
وتصبح زنجية تتدحرج تحت المظلاتِ
تقطر تحت صرير المشاةِ
وتلمس هذا الزجاج النضيرَ ليصبح أشهى
ويعكس وجهاً يلوذ بمدفأة تتلظى
وقد ترتمي قطة في القريبِ

لتلعق أطفالها أو تداعب خيطاً من الصوف يمتد نحو الأفقْ

وأضرمت نارها
أسندت رأسها للغبار
ومدت أصابعها تتصفح أحفادها
المولعين برائحة الكعك والجلنارْ
وأبنا ءها الغائبين سنيناً عن الدارْ
مرت ليال من العيد من غيرِ
أن يطرق القلب ضيف جديدْ
وظلت تعد لهم كعكعة وكؤوس
النبيذ على خلوة المائدة
وينتصف الليل سهواً
وتبقى الرياح تؤرجحُ كرسيها في العرا ءِ
هنا حشرجت عمرها
وانتهت يومها ثم رنَّ الجرسْ..



« ♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦ »

وتستعجل الآن كرسيها المتحرك
في الشارع المنهمك
تتمسك أرجلها بالجلوس
ويسرع كرسيها يتجاوز كل زحام الذين يمرون من غير أن
يتباطأ قلب لمرأى صباها الكسيحِ
وخصلاتها الميتة...

مر وقت طويل ولم تتجرأ أن تحتمي
بالحديد لكي تتجول في المدنِ
ولكنها اليوم أكثر حزناً ولا ترضى بعجز نتنْ...
سوف ترتاد كل الميادينِ
تبحث عن والد لم يعد
كان بالأمس عكاّزها
قطرة البيت حين تموتُ

على الشرفة التي
ستشنق أزهارها
كان قفازها في ليالي الشتاءِ
التي لم تجئْ
ولكنه صامت أغلب العمرِ
مقتضب في نحيب قصيرٍ
يخبئه في سديم القبلْ
وفي قامة طالما تركت
ظلها في الهجير لها
فلماذا تمدد ميْتاً
بأسفل كرسيها...



(••••••••••

وقد كان سهلاً علينا بأن ننتظر
وأن أحداً لن يجيء
على أن نظل هنا عاجزين
عن الحلم والانتظار...
كما كان غيباً شجياً
يُجرّعنا نكهة للحياة التي سوف تمتد سهواً وتجعلنا نغمض الآن قلباً
على الذكريات
ونرحل في مجريات العذاب الأثير لدينا...
*فلن نتعرف وجهاً «لجودو»**
عزاءً لأيامنا الخائبات
وللعربات التي تنهب الدربَ دون وصولٍ
سيمنح ركابها معطفاً دافئاً أو عشاء...

جودو بطل مسرحية صمويل بيكيت/ بانتظار جودو.

وداعاً لجودو وإذاً
أو وداعاً لنا أخراً
وكان من السهل أن نشتهي
بلاداً لنا من جراح يسوع
ومن دمه المنهمرْ...
على خشب يابسٍ كالقلوب
التي تستحيل صليباً لأحلامها الغائبة..
ضريح البلاد التي تصلب الأنبياء
وتبقي على موتهم بيننا يتجول كي تتراجع فينا النبوءة ثم الرؤى
ويصبح هذا المساء ضريراً كقلبي الذي هجرته شرايينهُ
أو تشعب في كرنفال الجسدْ...
- لشمعته الذائبة أصير الوهج وقبلة -
سأطبعها في جبين الحبيبِ
المغادر أسماله في صباحٍ
عصيٍّ على الانبلاجْ
وصمت رخيٍّ يفاجئنا بالكلام الذي ظل رهنا لحنجرة خائنة...

بي رغبة لاقتحام المكانِ

وخلفي مدى الحزن والذكريات

وقهر ملامح وجهي الرماديً

أن أتذكر شيئاً من الحاضر المنصرمْ

وأن أتلهى بدرء السنين عن المشي نحو ضريح الأزلْ..

وكان علينا التشبث باللأي

خلف المرايا لكي لا تضيّعَ أسماءنا في الورق...

ونجهل في الأمس آباءنا.

فكم كان سهلاً علينا بأن نتربع فوق عروش الفناءِ

ندندن كل الذي يتصورُ موتاً

ويتركنا كي نؤرخ في صمتنا

المرمري على وتر حائل اللحن

بعض احتضارٍ

ونمشي عليه كما البهلوان الذي

سوف يهوي إلى قاع صمت المكان

وأزمنة تصفح الآن عن قاتليه...



« آه .. »

صرير المشاة على الدربِ
يأوي إلى مسمع حافل بالضجيجِ
فينهار صوت المطرْ
وينساب تحت شعاب التقصي
وتفرح عابرة الحزنِ
أن المظلة كافية السطحِ
كي لا يبلّل شَعرٌ تفتحَ تحت عيون المدى
خصلتين ثلاثاً توزع انهارها في الترابِ
وتنفض عنها غبار التردد والاشتباكِ
وتصحو البيوت على ضجة الناسِ
إذ تتثاءب ثانية بثغور المداخنِ تنفث منها الهبابَ
وتحمل نحو السماء سحاباً
لا يريد النحيب ولا أحداً ينتظرْ

هناك ولا من يصلي له كي يمر على التربة القاحلةْ...
حسبنا أننا قد أردنا المسيرَ
ودربي ودربك قد أظلما برهةً
وتختار أنت المصابيحَ كيما تضيء الرصيفَ
وأختار نجماً يؤرجحني بين أكثر هذي الحواري ارتباكاً
وبينك كي أستطيع الوصول إلى البيتِ قبل انتصاف القمرْ..

وكنت عرفت بأن خطاكَ
معمدة بالوصول وأني
غريب يباغته الليل يوماً
فيحزن ثم يدوس عصاه وقلبه
ويدخل في جلده ثم يأبى
بأن يتبع الموت والشائعاتِ
ويختار أن يتدثر بالشعر والأغنيات
فيصحو وحيداً على بلدة أنكرتهُ
فلا ساحة عرفته ولا وجه
أمي المبالغ في الحب

قد يستطيع انتظاري
ومنحي الكثير من الصبر كي أفتديك
ولا أشتهي الآن دربك تحت نعالي
وقلبك بين ضلوع انتظاري
وظلك خلفي ليرشدني
ثم يفتح يوماً طريقي إلى نجمة
لم تعد ملكنا مذْ رحلتَ وخلفت فيَّ السنونو أسيراً لعش يبادله الدفء دون وليف يرد إليه جناحيه عند مهب الشتاء...



نعش العودة

جدتي ما الذي أجل موتك إلى حين عودتي
مالذي أجل رحيلي إلى ما بعد موتك
وكيف لنا بعدُ أن نلتقي...

وحسبكِ أن عصاكِ
ستبقى بكف أبي
وحسبي بأني سأحزمُ خصلات شعري
بأعشاب منديلك الأخضرِ
وحسب البلاد بأن القبورَ
تُغطى بسعف النخيلِ الذي مات يوماً على واحتي
فهل نلتقي
وإن ضاقت الأرض يوماً بكِ
سأدعو بأن يفسح التربُ قبراً لكِ...
ولن أخبر العائدينَ

بأن الغريب يموتُ إذا ما أراد الرجوع إلى بيتهِ
لأن الدروب نعوشٌ
تربَّص دوماً به...
وحسب صلاح بأن يعرفَ
الآن جدي
ليدرك أن الغزاةَ
الذين يمرون يوماً على
الأرض ما دنسوا قبرهُ
مرة في هزيمة متئذنةٍ
في رواق الكنيسِ
وحسبي
بأن أتنشق عطر غيابٍ
دفين الحضور لأنسى
بأني ولدت من الطينِ
والماء أني سأفنى...
فلا تتركي في ممرِّ الطريقِ ضلوعي

هنا مات قبلي الحنين إلى البيت يوماً وحين دفنتُ ذراعي
تحت سياج الجنونِ
عرفت أصابعنا كيف تنبتُ
تقطف أزمنة لم تمر بنا
وظلت كواكب ذاكرة في صقيع البنفسجْ
أحبكِ فانتصبي فوق قبركِ كي لا تنام الحكايا
فكيف تعود إلى أمها طفلة
ضيعت حلمها خلف درب ضريرٍ
وكيف تُعلّق أخرى إلى شعرها
أين أنت؟!
إلى أين يختتم الحبُّ هذا الجنون القصير لأرملةٍ
ودعت نفسها حين كنا نشاجر أمتعة كي تظل هنا
أو تسامرنا قبل أنْ يصبح الدفء ذكرى
لو اني عرفت طريقي إليكِ لما كان ظلي يلاهث بينَ البلاد
ويبحث عبر المحطاتِ عن بلدة غير صدركْ
لو أني امتلكت العبورَ على جثة غير جسركْ
لما كان هذا الرجوع إليكِ يضاهي الرحيل وما كنتُ بعد

أوزع أمتعتي بين صيفينِ كي أشتري منزلاً في الرمالِ
وأغنية من سماء تعدُّ السحاب لأولى الشتاءاتِ لا تقتفي
أي طيرٍ
ولا تسترد المداخن من أيِّ بيت تثاءب قبل رحيلِ
الغجرْ...

وكنا نتوق
إليك ككل البشرْ
وتفتح تلك البلاد لنا أذرعاً
سائحْين لنلتقط الشمسَ بعض الصورْ...
وكنت سأطرق بابكِ خلف ضميري لكيْ
تحضري قامة من نجيع الشجرْ
ولكنني الآن خنتُ مفاتيح بيتك حين
رميت بها في مهب السفرْ...
بيننا لغة أثقلت صمتها
غربة تتعرى لتغري الرجالَ
بأن يتبعوها إلى حيثُ لا وطن في الخرائط غير الزمنْ
أبي لن يعيد إليَّ عيوني

التي سقطت خلسةً في خريف الضررْ..
ولن يعرف الآن درباً
إليك سوى الشعر والميجنا
فهذا الذي قد تبقى لنا
من رحيق الجنوبِ
ومن منزل حافل بالذنوبِ
ومن أرض جدي التي ينهب العابرون بيادرَها بانتظار الصقيع لأني تعودتُ أن أتدثر حزناً بحلم الرجوعِ إلى فيء عكا التي هزمتْ فاتحاً ثم ماتت على الفور أسوارها في نعوش الغزاةِ
لتصبح إحدى العشيقات سراً
وقد كان وجهك آخرة للوصولِ
أمان المسافر حين تجودُ
الدروب بدفء المحطاتِ يعرف زوادة القلبِ
لن تختلي بالوجوه التي
ذرفت ذات صبح هواكِ
وواقفة الحزن كانت سواكِ

ومألوفة الموت كنتِ فكيف سيصبح نعياً شذاكِ
لكي تنحني في مداك الحقولُ
سنابل مثقلة بالمناجلِ
ولم يكفني حين قبلت وجهكَ
كنت أودع كل صهيل الضفائرْ
وقد كنت سهل البكاءِ
وكان على رأسك البكرَ عصبةْ...
فكيف ارتمت قصتي في النهايةْ
وودعت جسراً يعود بنا نحو تلك البدايةْ
وأدركت أن رحيلكِ
كان يتوئم هذا الرحيل
الذي قد شرعت إلى الغرب
في ترتبكْ
وأنّا نموت سوياً
ولكن موتكِ صار الخلودَ
وموتي يصيرَ غيابكْ...



صليب انتظـار

«قليل من الوهـم يكفي لكي نتجنب أن
نتوقف وجهاً لوجه أمام مرايا الحقيقةِ
في كرنـڤال الحياةْ
ولكنه سوف يعجز أن يستوقفَ
نزف المعاني الذبيحة دوماً
بمقصلة الكلماتْ...»

ولا لا أريدك حنجرة من قصبْ
وقد تصفر الريح فيها
لتنبئ قلبي كم قد تركت
على غيبه من براري
ولا لا أريد لوجهكِ
أن يتعتّم منطفئاً
تحت ضوء القمرْ..
ومنهمكاً بالغناء الضريرِ

لأشعر أني خسرت عيوني
كسرت المحارب في قامتي
حين أدركت أنكَ
ما كنت إلا وترْ...
فهل قرب بابل بعض البنفسجِ
كي يستطيع التقاط المغني
من الوحل ألواح بدر من الكرنفالِ
وهل أستطيع تقمص ليلى
لكيما أدلّي نحو الحضيضِ لقيس المُذَلِّ ضفيرة شعري
لكي يتسلق حباً سيغفرُ عهر القبيلة دوماً..
أأخبرت أمي بأن النعوشَ التي أُوصدتْ بين قلبي وبين
أبي لم تكن تستطيعُ الترجل عن موتنا كي تبلّغ عنا
فلن أتوقع شيئاً
لأن اليسير اليسير يفاجئنا
بعد هذا لأن القصور توالت
ونحن سنبقى قلاعاً تعلّمها الريحُ
أن الحقول ستبقي

سنابلها عبدة للمناجلْ..
ونحن جياع
وأن الرجالَ الذين نحب كثيراً
بلا طرقٍ أو وسامْ
والسجون التي تتهدجُ ملء العصور وتسقط قضبانها
صدفةً لم تكن تتداعى بوقع سنابكهمْ مثلما يحسبونَ
وأن الذين يولُّون كانوا جديرين بالموت من قبلِ أن يولد
الساخطونَ
وقيصر كان سيفنى لأن بنيه أعدُّوا
له ألف عرش وعمرٍ ومقهى
ترانا ولدنا طغاةً
ونترك بين الدفاترِ
سخط اليسوع على جهل قومٍ
ولم يعرفوا من نبي سواكْ
يهوذا يُعِدُّ على الأرضِ
مملكة تتناسل كي يصبحَ
التبر شمساً تطل على الأرضِ

من وجه هذي السماءِ
وتحرق كل الجلود التي قدْ
تعرّت مساء ليغسلها الوقت والمستحيلُ
ترانا كبرنا
ولم نستطع أن نفكَّ تفاصيل لغز الوجودِ
لأن الحياة القصيرةَ جاثمة كلها خثرة في وريد العدمْ...
تراها المدنْ
وقد أدمنت أن تشاد على صرح كل المقابر ثانية كفلسطينَ
أو سراييڤو التي دفنتْ
تحتها جثة العصر ثم ادعت انها هادئةْ...
قريباً يعود إلى حضنها العاشقونَ وأطفالها المعدمونَ
وسوف نزور قريباً متاحفها
ثم ننسى الوجوه التي ما نزالُ نفتش تحت الترابِ المفتت عن موتها
هكذا ترجع الأم ليلاً
إلى البيت من حانة مقمرةْ

تَفَقِّدُ كل ذويها
تغطي لماماً من الريحِ أطفالَها
ثم ترجع عاهرة تتلقى نعالاً غريبةْ..
تذكرها أذرع العزباء الغزاةِ وأنخابها أنها ولدت كي
تعيشَ
على جنبات الموائد كالغانياتِ بلا أمنياتٍ سوى العودة
المستحيلة نحوَ الأمان السحيق لزوج خسيسٍ على
الطاولةْ..
ربما باعها كي يعيشَ وكي يثمل الآن يأس جواريهِ
والشائعاتِ
وكي يتدفأ بالعهر والصلواتِ
ولكنها سوف تضطر أن تتسلقَ كل مساء ذراعهْ
لكي يرجعا نحو بيتهما في الصباحِ
ولا يدرك النائمون بأنَّ أسرَّتهم قد أبيحت لغير ذويهمْ
ويستيقظ الآن أطفالها منهكينَ من البرد والليلِ لا
يعرفون الحقيقة قد يحدسونَ
بأن أباهم تغرّب حيناً

وما كان شهماً

كما حدثت قصة عنه يوماً

وأرملة أجّرت نولها

حين عاد وما كان يوماً يحارب آلهة الموتِ

كيما يعيش وما أبصرَتْ سيفه غارقاً في الدماءِ

ولا ثوبها ممعناً في الحدادْ

فهل سوف تنطفئ اليومُ آخر أضواء مسرحهم كي

تعود الظلال إلى عريهمْ

ثم هل سوف تكفي الستائرُ

كي يستريحَ الجدار على خزيهمْ

فمن سوف يبقي هناك وراء الكواليس ميْتاً

ومن سوف يخرج للناسِ من غير أن يرتدي زيَّه

سوف يُقتلْ...

فتذكرةٌ يا صديقي هو العمرُ

تذكرة هل تريد الدخول إلى المسرح اليوم أم هل نؤجلُ

دوراً سيسحقنا برهةً

كي نسير معاً تحت هذا المطرْ

هل من طريق يجنبنا ضجةَ الناس والحافلاتِ
وهل كان صعباً علينا بأن نلتقي قبل هذا اليباسِ
ومن قبل أن تبصر الأرضُ
فحوى المدارِ
وهل لا يزال لدينا دروبٌ
لا تتصالب فيها القطاراتُ من حيث لا نشتهي أن نمرَّ
ونحن جُبلنا على طاعةِ الحب والأصدقاء
وهل مرَّ «جودو» علينا لنبقى طويلاً على أهبة الانتظارْ...
هل أودع حقاً أواخرَ
جان دارك في داخلي
مر هذا الحصار وبابل تذكرنا جثة في جسدْ
وتذكر أن الأكاذيب جسر الحقيقةِ نحو الأبدْ..
هل أودع قلبي على نبضةٍ حركت في دمي خثرة تتوقفُ
عند شرايين ذاكرةٍ شككت
أننا نسل بلقيس نسل سبأ...
وهل كان مهر صلاح سيدري
بأن البلاد التي حُررتْ من صليب الغزاة ستسقط ثانيةً

تحت أحذية من ذهبْ...

لقد مر وقت طويل على مجد هانويَ

كي نتقي يأس هذا المصيرِ

ومرت على قبر لينينَ أزمنة لم يمتْ...

ويبقى «لليندي» الذي اغتيل منتحراً قامة تتسلق في الليل كل هزائمنا

تتجرع خوف العراة الكثيرينَ من صولجان الطغاةِ

ولكننا خائفون من الأبجديةِ

أن تتنصل من حبر لوركا

وأن لا تعرج ثانية عند مرثاة إلزا

وإنا نخاف من المكتبات التي لن تؤرخ أحزان هتلرْ...

ومن حاضر ليس ثمة ما

يلفت فيه النظر...

ومن جدة مضجرة

وقد لا يعود لأحفادها رغبةٌ أن يناموا على حضنِها في الشتاء الطويل لتخبرهم

قصة عن سنين مضتْ

عن مصب البحيرات عن منبع النهرِ
عن غاية البحرِ
كيف قراصنة الحلم قد سلبوا جدهم كل أمكنة الوقت
كيف تشرد كل الذينَ أحبت على الخارطةْ...
وعن شغف السفن العابراتِ بكل النساء اللواتي تبرُّجْنَ بالمعجزاتِ
وعن كل من أورث الرقَ
جرحَ البلاد وعن متجرٍ
سيخبئ في قبوه جرةً
من نبيذ معتقْ سنشربها
حين يرجع والدهم من غياب وشيكْ
وحين يعود المسيح من الصلبِ حياً ليدفن مريمْ..
ولا ينصتون فثرثرةٌ كل تاريخنا المنصرم
كما سوف يأتي
فلا الغجر العابرون إلى المدنِ المستقرة قد عرفوا قدراً ماجناً مثلنا
إذ مررنا بشتى العصورِ

وأن خرائط كف العجائز قاطبةً
لن تشي بالسنين التي تنتظرْ
وأبناء آدم من ضلع حواءَ قد دحرجوا صخرةً
مثل تفاحةِ الألف قرن ونيفْ
وسيزيف كان سيسخر لولا
يداه المحملتان بعبء السماء الخفيضة
كيما نمر وعشتار ما أخصبت
قحط فينوس يوماً
ولا أطفأت بالدموعِ
حرائق روما
لأن الجميلة كانتْ تغازل نيرون في مهدها المرمري الذي
صار عرشاً
لريتا . . .
وكان لسقراط كأسٌ من السم دوماً أُعِدَّ لكل الذين نفوا
كوكب الأرضِ
قلب المجرةْ . . .
وقد كان كأساً معداً

ومن سطوة الموت حينَ يكون وحيداً وكنا نصفقُ
كي لا يلم بنا وكنا جميعاً سننكر أسماءنا كي نؤوبَ
إلى بيتنا لنكذب زوجاتِنا
ثم يحملنا الصدق أن نتشاجرَ
مع نفسنا ثم ننسى
بأن الشموس ستشرق غرباً
فهل يا صديقي تبقت لنا محنةٌ لم تعشش
وهل بقيت قبلة أوشكتْ
أن تفر بعيداً أبعد منْ جسد سوف يبقى ملاذا
لرواد عشق وأحجيةً
تستطيع بأرحامها الخالداتِ
بأن تُنبت الأرض ثانية من زبدْ...

هنا قبعات الجنود تطير مع الريحِ
أوسمة تتساقط تحتَ نعال الجنودِ...
كسيح هناك يبادلُ عكازه بالرغيفِ
وكسرة حب تبقّتْ

تُفَتتُ بين ملايين هذي الطيورِ
تحت السماء بأن تحتويهمْ
وألا تفرق أعشاشها في مدار البنادق
عندي مظلةْ
ستكفي لكي نتلاصقَ تحت غشاء شفيفٍ
وكي تتشابك أذرعنا
- محض رغبةْ... -
فهل في جيوبك تبغ لأمسية واحدة
سنرقد خلف نوافذ مقهى
وحتى تموت الغيومُ
وتسطع شمس المغيبِ
تحدثني عن أبيك الذي مات منتحراً في شجار مبارزةٍ
مثل بوشكين أو كيف أصبحَ قاتله زوج أمكْ...
وهل كنت تعرف أني أحبكَ مذ قد ولدت وأني تنكرتُ
يوماً بزي غريبٍ
لكي أجذبكْ
ثم تبادلت ثوبي..

سرقت قميصي وأعطيتني معطفاً كالحاً للشتاءْ..

- كثير عزاء النساءِ.-

ولا تملكون القليل من الصبرِ

كي تصنعوا عالماً ياحبيبي لنا

ولا تملكون البصيرةَ كي تمنحوا طفلنا قبلة لا تلطخ أسماله بالدماءِ

التي أوشكت أن تفيضَ

وتقتلنا مرة حين أنجدَنا

رجل باسم نوحَ

ليجعل من عبرة الطوفِ

عبئاً يحملنا كل من قد غرقْ

وهل كان أيوب حقاً نبياً

لكي يتحمل أوبئةً في الحياةِ ووزر النفاياتِ

فهل قدر أننا سوف نحمل

تجربة واحدةْ...

تفادى غيابي وأسئلتي

مثلما يتفادى الضرير الحفرْ

تحس بقلبي تماماً كما يتلمسُ ضوء القمرْ
ويوماً فيوماً سنصحو غريبين لن نتخاطبَ
عما يجول بأجفاننا من نحيبٍ
وسوف تقبلني في الصباح المطيرِ
تغادرني عجلاً مثلما العمرُ
تسرقنا دورة الأرضِ
في غيبها سنة بعد عامٍ
وقد نتصادف في حي سوهو
لكي نتصافح من غير أن نرتجفْ...
وتمضي بك العربات التي أسرجَتْ
قصي الجهات وحيداً
ولكنه فارغ القلب
لن يتهور ثانية في دروبِ
الخطيئة منهمر عطره في ثيابي
فهل سأبوح لكم أن قلبي عفنْ
وأسئلتي ربة الوقتِ
لم تحلموا بالمثول إلى النيلِ كي تنشلوا جثة الأمسِ

لم تصنعوا هرماً بالاضافة
كي يتراقص خوفو إذا ما أعادته ثانيةً
إلى مصر آلهة كي يسوطَ العبيد الذين تناسلُ أبناؤهم في
المقابر حتى زواريب أحيائهم..
ثم لا يؤمنون بعيدٍ جديدٍ بناصر يهزمهم مرة في الحياةِ
وأخرى بعيد الممات ليفترشوا قبر والدهمْ
وكي يمضغوا آسه حينَ يخذلهم خبز أرضٍ يجف على طبق
زائد قد أُعِدَّ لأي ثري نزقْ...
وهل نحسن الآن غيرَ معالجة الجثث الباردةْ
وكم مهنة أورثتها القرونُ
فراعنة الأمس سراً لنا
كي نخّط أيامنا
فاغفري أن قلبي تعفنَ
في موميا ء البلدْ
وأني احتفظت بأولى الحروفِ
لنا الأبجدية بكرُ الكلامِ فكيف نُضام ولا تستطيعُ
أصابعنا أن تؤرخ هذا الألمْ..؟

وكيف ليشربَ أن تنحني تحت نير العصاةِ وتصبح وكراً
بذيئاً

ويشملها النفط ينخرها الظلمُ

يدفنها التبر حتى يغطي قبور الصحابةْ

وتصبح فيها المدينة مطفأه بعدما عاد سفيان كي يعتلي
عرشها

ثم جللها بالسواد

واستورد العاهرات من الأرضِ

كان يصلي على وثن غابرٍ

كان يحسبه الرب يوماً

تهدم تحت فؤوس النبيٍّ

هو الحق يزهقُ والباطل المزمن الآن عادَ وفي جرحه زمن لا
يعيدُ إلى الأهل مدريدَ أو أرض فارسْ...

فابكي قليلاً على مجدنا المتعسِّفِ

وانتظري شاهداً سوفَ

ينكر أنا فتحنا بلاد الفرنجةِ

ثم خرجنا ولا حقنا ظل غرناطةَ اليوم كيما يشيع قاماتنا
الواطئةْ...

وهذا هو العربي الأخيرُ
بزي ذويه وهجرتهم يرتدي
معطفاً باهتاً من ثيابٍ
تعود أن يتلقَّطها من رصيفٍ
ويفرح بالقليل القليل من الدفءِ في معرض البرد من
يحزر الآن عمرهْ؟
له مشية تتباطأ عند انتصابِ المسلأت كي يتسنى لعينيهِ
أن تمخرا أي وجه جميلٍ سيُعرض عنه إذا ما التقاهُ
له شامة في الجبينِ
وعند المغيب له غاية واحدةْ...
يعود إلى بيته آملاً أن يداعب زوجته أو يشاجرها
سيما إن أرادت بأنْ تغسل الأرض أو أن تزيح الأرائكْ
وكان فتياً يشاكسه صبية الحيِّ
لكنه أدمن الصمت والهربَ المختفي في الغضبْ
تحرر تحت صرير الحجارةِ في شارع جانبي تعوَّدَ أن
يتدحرج نحو نهايته فجأةً ثم يبزغ بيت قديم حبيس النوافذِ
يدخل ممتلئاً بالنفايات

حين تعود إلى كومة في الطريقِ
تودع أمجادها البكر في الواجهاتِ
هكذا كان يشعر حين يساق إلى البيت دون العثورِ على
عمل سوف يشغلهُ البحث عنه صباح مساء..
فيخلع شيئاً فشيئاً أكاذيبه
سوف يرمق ما قد تبقى له من قميصٍ
ويذكر زراً تدحرجَ هذا الصباحَ
على الأرض لم يستطعْ في الزحام التقاطهْ
أيفتقد الثقب في ياقتي الآن دوماً عناقهْ...؟
وها هو يخجله أن يعود إلى حجر زوجته خاوياً مثلَ فجر
تخلى عن الليل من غيرِ أن يقتني شمسه فاجعاً مثل نجم
تهاوى على عاشقٍ كان يحلم أن يتباهى أمامَ الرجال
بحسن صبيتهِ ثم يسرج أحزانها بالنحيبِ ويمضي إلى
صدرها
واحداً من قلائل كثرٍ تمنوا بأن ينتهوا قارباً في دموع
الجميلة وشماً على جسد مدلهمٍ

ولن يستطيع الوصول إلى
حيِّه الآن منتصباً مثل قبل؟

سيهرب من وجه جيرانه وذويه ويختبئ الآن في صورة الأمس تلك التي عوّدته بأن الكثيرات كنّ يبادلنه ليلة ثم
يحكينَ عنه وعن دفء زوربا المعرّشِ في قش صدرهْ...

هو الآن يحزم كل ذنوبِ الخليقة بعض سجائره والثياب القليلة يومئُ نحو بنيه بأن الرحيلَ سينشله في لهاث محتمْ..

وأن البلاد التي طردتهُ ليخرج فاتحها مرة في ثيابِ المنامة كان يطارح كلَّ جواريه سوف تعود لتفتح أذرعَها
كي ينام قليلاً

وكان يفتشُ في قبوها عن نبيد سيكفي لكي يثمل القلب والذكرياتْ

وسوف يكون صبياً بهيَّ الحضورِ ليحمل أمتعته العابرينَ
ويمسح أحذية المترفينَ ويفرح حين يدس غريبٌ
فتاتاً من الخبز في جيبه المهترئْ

فكيف ينام على مقعد بارد في الحديقة منتظراً هبة الليل ألا يكون جليداً وأن تتأخرَ شمس البلاد قليلاً لكي ينتهي

حلمه في مكان جليٍّ يتيح له أن يودع أطفالهُ واحداً واحداً
ثم يوصي المتاجر أن تتمهل في نهب ما سوف يرسله كل شهرٍ ومن سوف يدعوه أن يحتسي قهوة عربيّة
وأن يتسلى بنفث الأراكيلِ
في عصر يوم شقيٍّ
وهل سوف يملك أجراً لعاهرةٍ مشرقيةٌ؟

لو أني تمسكت يوماً بدربكَ حين انتعلتَ الطريقَ المعادي لقلبي
لو أني احتفظت بعينيك في رئتيَّ لما أوشك الحزن أن يقتنيني
لماذا تركت عشية دفء حضوري
وبعت الشموع القديمة في متحفي
واغتنمت السقوط على مفرق حالكٍ حيث كنت قناديل بهوٍ سيكملنا بالوقوف ونورثهُ ضجة توقظ الأعمدةْ...
سأخلع عن جسدي معطفاً كاذباً مثل صوتك أسلخ عن ظهر كفي يديكَ التي احتضنت رعشتي مرةً في رواق أليف

لتعلنَ أنا صديقان لن يغفرا كبوة الأرض لن نجعلَ العربات التي قايضَتْ

دربها بالوصول تلطخنا بالوحول التي أغرقت من تبقى...

فيا نزوة تتمالك عشاقَها

في مساء مريبٍ

وهبّة موت ستوقظ فيه

اشتها ء النفس في لغة الأمسِ

وتدفعنا أن نموتَ

وشيء من الريح يجرفنا خلسةً

للأمام ونبقى طويلاً

نُجرجَر تحت الخيامِ

لنا نكهة السنديان وغايتنا

غابة لا تصير غنائم فأسٍ

يؤرقه أنه خشب أسلطوهُ

على جيدِ أمهْ

ولا يستطيع التمرد في كف حطابهِ

خائفاً أن يؤول إلى جمرةٍ
في رماد المدافئ مثل ذويهِ
فيختار أن يصبح الآن جلادهمْ
في أكف الغريبِ
ويوماً فيوماً ستصبح هذي الجموع فؤوساً ولن يعثرَ الجائرون على شجر يحزفونه

فترتجف الفأس في كف سيدهَا

لم يكن كافياً أن يخونَ لكي تتجنب جثته أن تكونَ رماداً دخاناً ستنفثه الريحُ ملء المداخن غيماً عقيم المحاجر لم تنتظره القفارُ ولا يزعج القبراتْ

فكيف تصير حجارتكمْ دميةً في أكف الصغارِ تعرضهم للسقوط على شارعٍ كان بالأمس يقتادهمْ نحو مدرسة لم يعد لوحُها كافياً ليجنِّبَ أبناءكُمْ جهل هذي الحياةْ

فسحقاً لكل الغزاةِ وسحقاً لكل الرجال الذينَ تخلوا عن البندقيةْ

ويُضطر أطفالهم أن يلمُّوا قوارير خمرتهم كي يصنعوا المولوتوفَ اليسَيّج أحلامهم بالقلاعْ

ونملك نحن إزاء بطولاتهمْ
مزيجاً من الفخر والخزي والارتياعْ...

...١٩٩٦



الفهـــرس

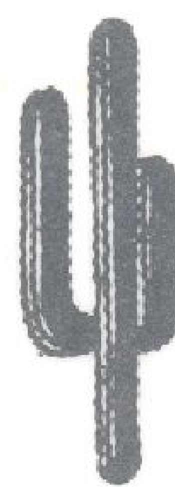
هذه القصائد

يلاحظ قارئ هذه القصائد أن الشاعرة د. بيسان أبو خالد، تتصل اتصالاً وثيقاً بتجربتين هامتين في الشعر العربي الحديث، هما تجربة السياب.. وتجربة حاوي..

كما أنها مفجوعة بموتهما المأساوي فجيعتها براهن الواقع العربي المنكسر.. دون أن تنكسر.. في غنائها المؤسس على الرؤية، وصولاً إلى الرؤيا..

إن هذه القصائد المكتوبة في عشر سنوات لم تولد مرة واحدة بالتأكيد، لكنها تبدو باستثناءات نادرة، كما لو كانت قصيدة واحدة متسمة بإيقاع ملحمي ولدته ظروف قاسية يمتزج فيها الذاتي بالموضوعي في علاقة جدلية تفضي إلى شعرية عالية هي صوت الشاعرة بخصائصه الخاصة والإضافية..

الناشر



الروّاد
التوزيع في لبنان والأقطار العربية الأخرى
لبنان — بيروت ☎ ٨٠٤٣٤٩